ثلاثة وعشرون يومًا
دون ماريســــــــا

رمزي الدراغمة

دار دريم بن للطباعة والنشر
العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨ ،مدخل ١
الهاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦(٠٠٢٠)
dream.pen92@gmail.com إلكتروني بريد:

ثلاثة وعشرون يومًا دون ماريسا

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م
غلاف: عمار جمال
تدقيق لغوي: حسناء ممدوح
تنسيق وإخراج داخلي: أحمد مسعد
رقم الإيداع: ٢٢١٩٥/ ٢٠٢٠
I.S.B.N \ 978-977-6794-59-7

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نَسْخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

ثلاثة وعشرون يومًا دون

ماريســــــا

-رواية-

رمزي الداغمة

دريم بن
للترجمة والنشر والتوزيع والطباعة

إهـــــداء

قمتُ بقراءة العشرات من الإهداءات لمختلف الكُتاب والروائيين، أردتُ أن أعلمَ لمن يقوم الكاتبُ عادةً بإهداء كتابه، فقد وجدت تضامنًا متوقعًا عند غالبيتهم، فـوجدتهم يقومون بإهداء ما أنجزوه للوالدين، إلى الزوجة، إلى صديق مقرب، إلى إمرأة لم يستطيع أن يكونَ معها إلا على خربشات دفتره، اكتشفتُ خلال كتابتي لهذه الأحرف أنَّ لائحة أسمائي طويلة وأرغب حقًا بذكرهم جميعًا، فـأرجو إن نسيت أحدهم أن يسامحني، فإنِي ّأملكُ ذاكرة أقوى من ذاكرة السمك بقليل.

سأقوم بإهداء كتابي لوالديَّ العزيزين جدًا، وأخُصُّ بالذكر والدتي فلقد اكتشفتُ أنني ورثتُ الكتابة عنها، إلى عائلتي أيضًا، أهديه أيضًا لزوجتي المستقبلية، بطلة روايتي الأولى والأخيرة، ولن أنسى صديقي العزيز مصطفى، فـلقد تحملني طوال هذه السنين الثلاث، فلقد كنا نسهر على الهاتف ليلًا بالساعات؛ ليسمع ما كتبتُ، كان تشجيعه سببًا رئيسيًا لإنهائي كتابي .. أهديه أيضًا إلى شخصيات روايتي، إلى أصدقائي، إلى كل شخص كان سببًا في إلهامي

مقدمـة أولى

أحببت أن أخبركم في بداية الأمر أنّه ليس بالضرورة وجوب حدوث ما ستقرأونه لاحقًا، لكنني سأخبركم بأنَّ بعضًا من كلماتي حقيقيٌ وبعضه مستوحيٌ من مخيلتي، والجزء الأخير يمتزج ما بين الحقيقة والخيال، ليس عليكم إلا معرفة الحقيقي من الخيالي، وربما تكونون محظوظين أكثر، فتكتشفون نقاط خيالي وحقيقتي المشتركة، ولمن ظن أنَّه أقترب من الفهم، والوصول الى الحقيقة فسأطرح عليك سؤالًا واحدًا فقط، كيف لك التفريق، والوصول الى الحقيقة، وأنا لا أعلم أين الحقيقة في كتابي هذا؟ على كل حالٍ، بالتوفيق في ذلك.

وجب أيضًا أن أذكرَ شيئًا أخيرًا، وهو أنني لستُ كاتبًا، ربما أسعفني الحظ والقدرة الإلهية؛ لإنهاء هذا الكتاب وفي الغالب سيكون كتابي الأول، وأيضًا كتابي الأخير..

مقدمـة ثانية

بقيتُ لعشرِ دقائق أنظر الى قلمي وهو يرجف، أغطُ طرفًا، فأرى سيجارتي قد ذابت، وأنا لم أُعرَها أيّ اهتمام، وفنجان القهوة الذي أصبح كالثلج، لكنه لم يستطيع تخفيف نارَ قلبي ببرودته.

جلستُ للحظات، ماذا عساني أن أكتبَ؟ ولماذا الكتابة الآن؟ هل سأصبح كاتبًا بعد مأساتي؟ أم تُراني أحد أولئك الأغبياء الذين يظنون أن للكتابة دورًا في عودة المحبوب مسرعًا؟

عُدت قد شردت للحظات، ماذا أكتب؟ أأكتب عن أجمل أيّامي معها؟ أن أكتب عن مقدار ألمي الآن؟ أم عن ذكرى جميلة؟ عن احتراق، عن ماذا؟

بـدأت أضعفُ الآن، ملايين الأفكار، والكلمات تريد الخروج على هذه الورقة، أيُعقل أن تحتمل؟

لحظة، لقد فاض قلمي .. يبدو أنه يشعر بحزني أيضًا، لكنه

استسلم مسرعًا وكحال أيّ شيء في هذا العالم، عليَّ استبداله!

لنعد لتلك الأفكار.. ماذا سأفعل؟ أأجعلها تخرج تارة واحدة؟ ماذا سيبقى لي بعدها؟ أسأصبحُ وعاءًا فارغًا؟ من أين تأتي كل هذه الأسئلة؟ من المسؤول عن تدفق كل هذه الأفكار؟

إلى من فجَّرت كلمات قلبي، الى قدري المحتوم، لكِ أنتِ سأكتب، وها هي قصتي:

اليوم الثاني

- السادس عشر من تشرين الأول ٢٠١٨ -

يتساءلُ البعضُ منكم أين اختفى اليوم الأول؟ لماذا لم أسرده؟ وكما في طبيعة الحال، بدأ الكثير منكم بنشز خياله الخصب، منكم من ظنَّ أنني قضيت يومي الأول باكيًا وجزءٌ آخرٌ ظن بأنني أغلقت على نفسي ولم أرَ أحدًا، ومنكم من ظن أنني جلست وراء مكتبي اقرأ رسائل الحب القديمة، علَها تخفف عني، أمَّا من كانت عاطفته تواقة، فظن أنني كتبت رسالة عشقي الاخيرة وربطت حبلًا بعنقي منتحرًا.

هذا ما أعتاد القُراءُ على قراءته، هذا ما اعتدنا مشاهدته على التلفاز، حتى أنني لا أعلم إن كانت نهاية عنتر وعبلة، أو حتى روميو وجوليت مشابهة لتصوري السابق، فأنا جاهلٌ كل الجهل بهذه الأمور، لكنني أعلم أنني لم أفعل أيّ شيء سوى الصمت! إنّ كان الصمت يُعد فعلًا، بقيتُ صامتًا تجول الأفكار في مخيلتي فقط .. أفعلًا حدث هذا الأمر؟

ما هذا؟ ما بالُ الأسئلة ترافقني في هذه الليلة؟ سأعدكم، أنني

لن أسأل مجددًا .. ربما سأحاول.

يتملكني غضبٌ عارمٌ في هذه اللحظة، لم أعتد على قضاء ليلتي وحيدًا، فكلماتها ليلًا هي دفئي، وصوتها بصيص أملي.

ما بالك؟ ما هذا الضعف؟ ما هذه الهزيمة؟ كُل من يقرأ الآن، يتمنى أن يصرخ في وجهي مرددًا هذه الأسئلة.

ما بالكم أنتم؟ أتضعون طفلًا رضيعًا في عرض البحر، وتطلبون منه النجاة بحياته؟ أنني لا أرى إلا هذا البحر، وأنا فريسته التي أنتظرها طويلًا.

لن أكمل، أشعر أنني أفقد جزءًا من مشاعري على هذه الورقة، لماذا؟ كيف لي أن أشعر بعشقها، وكرهها في الوقت ذاته، أيُعقل ذلك؟

أيريدُ الجميع الآن معرفة قصتي؟ قبل ذلك ستحتاجون حتمًا لمعرفة بطلتها.

تبلغ هذه الفتاة من العمر واحدًا وعشرين ربيعٍ، وهي إحدى فتيات جامعتي، وكأي قصة كلاسيكية أخرى، تشعرُ أنه لا بد للمرء بخوض إحدى تجارب الحب خلال مرحلة دراسته الجامعية، وكأنها أحد المقررات الدراسية، فلن يحصل

الطالب على شهادته أن لم يخض هذه التجربة، فلنشكر الله بأن الفشل في هذه التجربة لا يُعرقل تخرج المرء، لولا ذلك لوجدنا الكثيرين من أصدقائنا جالسين إلى الآن في الجامعة.

لنعد إليها، إنها تملك عينين سوداويين، تشبه الآسيويين في شكل عينيها؛ كما قالت لي مرّة، أو كما قال لها أحد أصدقائها في محاولة بائسة لمغازلتها ..

لن أنسى ثقافتها الغريبة، ذوقها العجيب في الموسيقى، حبها لكل شيء غير مـألوف، ضحكها، كُلّ ما فيها، عندما نظرت لها أول مرة علمت أنني وقعت في سحرها تائهًا ..

ستتوالى الانتقاداتُ تِباعًا .. وربما يبدأُ البعض منهم بمهاجمتي، فلن أجد في ذلك أيّة ضرر، سيكون لُبُّ أفكارهم يدور عن ماهية هذا الكائـــن، ستظنون أنني لم أراها إلا في منامي فقط، في أحلامي فقط، ولربما تكون احدى ملائكة الجنة، لكن؛ السؤال الأمثل الآن .. أيُعقل أنني وقعت في حبها من أولى نظراتي لها؟

لست غبيًا، أو كاتبًا خياليًا؛ يسرد قصة من مخيلته، ويبدأ بــحبكِ المشاهد، وزيادة التشويق بها؛ لرفع نسب مبيعات كتابه فقط، لست كذلك، أو ربما لست كذلك الى

غاية الآن.

سأخبركم بصدقِ ماهيه النظرة الاولى، أنه شعورٌ غريبٌ تملكني، أردتُ أن أراها، أردتُ إن أسمعها .. أردتُ أن أتحدث اليها، أن أغازلها .

إنَّه الفضول البشري، فلم يهدأ فضولي لمعرفتها، لحل لغزها، لفك شيفرات حياتها، أنه الفضول الذي يسيطر على معظم مناحي حياتنا.. يا إلهي فلتساعدني .. ما بالي استمرٌّ في كتابة جُملي الآن، على ما يبدو سأصبح أسير قلمي وورقتي.

من أين تخرج هذه الكلمات؟ لا أذكر أنني كنت مغرمًا بحصة اللغة العربية، ولا حتى بقصائد نزار قباني الغزلية، إذًا فليخبرني أحدكم، من أين تخرج هذه الكلمات؟ أيُعقل أنني سأفجر غضبي على هذه الورقة مكتفيًا؟

بقيت ثلاثين دقيقة أجَمعُ حروفي وكلماتي لسردها، وما حصلت عليه في نهاية المطاف مجموعة أوراق لا بأس بعددها متناثرة في أنحاء غرفتي ..

أُيعقل أنني لم أعد أستطيع التحدث عنها؟ أم أنني احتاج الى البداية فقط؟

إنها الرابعة صباحًا، لقد مر الوقت مسرعًا عكس ما توقعت، أشعرُ بتعب وإرهاق شديدين، يداي لم تعد تستطيعا الكتابة، بدأ جسمي الضعيف يخذلني.. علّني بعد دقائق أكون مغشيًا على مكتبي.

*****

اليوم الثالث

- السابع عشر من تشرين الأول ٢٠١٨ -

إنها ساعات الصباح الباكرة، إني أرى بعضًا من النور يقتحم غرفتي عنوة، لكنني لم أنم بعد، ما هذا؟ أيعقل أننا في صباح السابع عشر من تشرين الأول؟ قمت مُسرعًا وخلال عشر دقائق، كنت واقفًا أنتظر وصول قطاري، إنها الواحدة ودقيقتين. سأحتاجُ الى سبع دقائق فقط حتى أصل الى وجهتي إنه يومي الأول.

لا أظنُ أن للصباح والمساء وجودًا في حياتي بعد الآن، فلم أعد أعلم متى يغشى عليَّ من شدة التعب، ومتى استيقظ من كابوسِ أبي، إلى أن يرافقني طيلة منامي، بدأت أشعر بالوحدة، أصبحت أشعر بطعم الغربة المر، فألم افتراقي عنها تارة يقتلني، وتارة ألم الغربة في هذه البلاد وحيدًا.

لم أحدثكم عني بعد، فأنا أبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، حتى أكون أكثر دقة فهذا عمري عندما كتبت هذه الكلمات، هذه الجمل .. لربما سأنشر روايتي بعد عشرات

السنين، ربما لن أفعل مطلقًا، وأن كنتم تقرأون هذه الكلمات الآن، فذلك يعني أنني كنت مخطئًا أيضًا، وقد استطعت بتوفيق الله بنشر عملي.

كحال أي شاب عربي يسعى نحو الأفضل، قررت بدأ رحلة جديدة في بلاد العجائب، البلاد التي لطالما حلمت في صغري لزيارتها، إنها ألمانيا. إنني أقوم بالتحضير؛ استعدادًا لبداية الماجستير في الفصل المقبل، إن شاء الله.

لنعد الى الصباح، إنَّه صباحٌ مشرقٌ غير متوقع، فألمانيا تكون باردة عادةً في مثل هذا الوقت من كل سنة، الشمس تداعب جبهتي من نافذة غرفتي، وفنجان قهوتي ينتظر بشغف لملامسة شفتاي، وسيجارتي التي تنتظر فتيل إشعالها؛ كي تحترق لأجلي يا لمثالية وبساطة الحياة في هذه اللحظة.

خرجت مسرعًا من المنزل، لقد نسيت الوقت تمامًا، أحمدُ الله فقد لحقت بقطاري في آخر لحظاته، فلم أكن أنوي مطلقًا أن أتاخر، مع أنني لم اتأخر عن موعدي، إلا أنني لا أشعر بالسعادة. فأنا لا أستطيع الشعور بلذة الصباح وأنا مرهق، كل ما أتمناه، سويعاتٌ أخرى في فراشي، نظرت إلى الساعة، إنها السابعة وثمان دقائق.

لماذا جلستما أمامي؟ لماذا أمامي؟ المقاعد شبه خاوية، شاب وفتاة والحب يفيض من عينيهما، وكأنه ينقصني هذا الآن، ها هو يُداعب خديها وهي تنظر إليه تلك النظرة، كأنها تملك كلَّ ما في هذا الكون، هذه المشاعر، كل من حولهما يشعر بذلك، إنها هالة الحب ويا كثرة من غرق تائهًا في هذه الهالة، وكأنني كنت في الفضاء الفسيح، أناظرُ الأرض من القم، فكانت تلك الهالة الغريبة، التي لم أعلم أنها ثقبٌ أسودٌ، سيبتعلني حال نظري إليه.

بدأ يُداعب خديّها، ويلامس شعرها بأطراف أصابعه، ستُصاب بالذهول لبرهة من الزمن إن كنت عربيًا، فنحن لم نعتد على رؤية ذلك، فسوف تتسائلُ حينها حتمًا عن منبع هذه الجرأة، يبدوان لي حبيبان عاشقان، لربما تنتهي قصتهم الجميلة نهاية هذه الليلة، تفهمون تمامًا ما أقصد، لأولئك المطلعين مَنْهُومي العلم جيدًا، سيعلمون أن حاجتنا لذلك، كحاجتنا للطعام والشراب تمامًا.

ولأن اللحظات الجميلة لا بد من نهايتها، ها هو مفتش التذاكر أمامهم يسأل عن التذاكر؛ ليراها.

يبدو شاحبًا مرهقًا، فلم ينظر إلى تلك التذاكر إلا بطرف عينه فقط، ثم رحل.

رحل، لكنه ترك في عقلي أسئلة جمة.. ما باله وما بال الحزن الذي في عينيه؟ وددتُ أن أسـأله عن حاله، لكن المحطة القادمة هي محطتي، خفت أن يشدني كلامه، وأنسى النزول وأتأخرُ عن محضرتي.

اعتدت على القراءة في وقت انتظاري داخل القطار، قرأت الخيميائي؛ بناءًا على نصيحتها، أحببتُ كل ما أحبت، لكنني لا أستيع ايقاف ثوران قلمي، وورقتي، ما بالهما؟ أيُعقل أنهما كانا حبيسى سجني منذ أمدٍ بعيدٍ؟

تارة أتحدث وتارة أطرح الأسئلة، أقسم بأنني سأدفع كل ما أملك لمن يملك أيّة إجابة لهذه الأسئلة. وصلت الى وجهتي، دخلت الى القاعة، سلامٌ بصوت خافت، هدوءٌ لم أعتد عليه، جلستُ على مقعدي المعتاد، رأيت ورقة أسئلة أمامي، نظرة خاطفة إلى ساعتي، إنَّه يوم الاثنين، نسيت الامتحان.

أجبت ما استطعتُ إجابته، أنهيت الامتحان، تمنيت يومًا سعيدًا لأصدقائي، ثم رحلت مع أحدهم، بدأ الجوع يُداعب معدتي، ذهبنا الى أحد المطاعم العربية القريبة، فما زال الحنين يوقد نارًا في داخلنا، تستطيع سماع صخب الموسيقى قبل وصولك إلى باب المطعم بأمتار قليلة، صوتٌ عربيٍ أخاذ

مألوف لدي أطَرَبَ أذاننا حالما دخلنا، أنه أبو وديع.

وكما اعتدتُ دائمًا أن أسترق النظر الى من حولي، فهي إحدى عاداتي السيئة، التي لم أستطع التخلص منها، طالبٌ مع صديقته، رجلٌ في الخمسين من عمره وحيدًا مع كأسِ من الشاي.

أرى أيضًا بمحاذاتي عائلة صغيرة مكونة من طفلين صغيرين وأبويهما، والسعادة تغمرهم بشدة، مع إنهم يبدون ممن هم ليسوا بميسوري الحال، ما الذي يجعلهم بهذه السعادة؟

تلك السعادة التي نبحث عن سرها جميعًا، تمنيت أن أحصل على سر وصفته، أتمنى دوام سعادته، أتمنى ببعض الأنانية لحصولي على جزء من هذه السعادة.

تجولت في أنحاء المدينة وحيدًا، أتحدث الى نفسي، وجدت مقعدًا فارغًا، فجلست، أخرجت قلمي ودفتري الأخضر الغامق، كوب قهوة ساخن، هدوء غير مسبوق، دفء في السماء.

ظروفٌ أقل ما يقال عنها بالرائعة لكاتب مثلي، إنّ استطعت حقًا أن أقول أنني كاتب.

بدأت بالكتابة وأنا متحمسٌ جدًا، ما هي إلا دقائق قليلة معدودة، نظرتُ إلى أعلى فرأيّت شابة في مُقتبلِ العشرين من عمرها، ذات عينين زرقاوين، وشعرٍ ذهبيٍ طويلٍ، ابتسمت لي وقالت: هل لي بقداحة؟ (بلغتها) سألت نفسي مرددًا، من أين علمت بأنني مدخنٌ وأنها حتمًا ستجد غرضها معي؟ ما هي إلا ثوانٍ معدودة حتى تناثر سَجن سيجارتي على ورقتي، أتيًا لي بإجابة سريعة عن سؤالي. قدمت لها القداحة بكل سرور، ثم بعد ذلك طلبت مني بكل لطف الجلوس على نفس المقعد، فما كان جوابي لها إلا أنه مقعد في حديقة عامة، وتستطيعين الجلوس عليه متى شئتِ.

حاولت مواصلة الكتابة، لكنني أشعرُ بأن أفكاري قد شُلت بسبب هذه الشابة، بغضتها كثيرًا حينها.

بدأت أشعر بالضيق قليلًا، أغلقت دفتري، أشعلت سيجارة، وأخذت نفسًا عميقًا، علّني أستطيع لململة بعض الافكار الباقية.

بدأت بالتطفل عليّ، ماذا تكتب؟ وبأي لغة؟ حدثت نفسي، وما شأنُكِ أنتِ بذلك؟ التفت إليها وقلت لها، إنه بعضٌ من النثر ليس إلا.

بدأت بالخوض أكثر، عن ماذا تتحدث؟ ما فحواها؟ تملكني غضبٌ في تلك اللحظة.

نظرتُ إليها شاحبًا، واعتذرت منها بحجة أنني لا أجيد الألمانية جيدًا، وعليّ الذهاب، كررتُ اعتذاري وانصرفت.

بعد الرحيل تذكرت شيئًا، إنه ذات الفضول الذي تملكني مرات عديدة، أرادت أن تعلم؛ إرضاءًا لفضولها ليس إلا، لربما لأسباب أخرى.

إنها الواحدة والنصف، بعد منتصف الليل، سماء صافية، بعض النجوم تتلألأ، ضوءٌ خافتٌ من القمر، طُرق باب غرفتي، لم أكن متيقنًا بأن هذا قد حدث، اعتقدت لوهلة بأنه مجرد وهم ليس إلا، أُحبطت شكوكي كلها، وطُرق الباب مرة أخرى، شعرت حينها بخوفٍ لم أعلم سببه، فتحتُ مسرعًا، إنها زميلتي الروسية في السكن، حدثت نفسي، وما بالكِ في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تبدو شاحبة والحزن يملأ عينيها، جلست وبدأت ببعض المحادثات الروتينية المملة، وأنا لم أستطع إلا أن أحاول إبداء اثارتي في محادثتها، فإن لم أفعل أخاف أن تحرمني من كوب قهوتها، فهي تُعد كوب قهوة لا مثيل له، سكتت لوهلة، ثم انفجرت بكاءًا قائلة، وأنا اقتبس

الآن: «لقد استطعت التأكد من خيانة أرتو (حبيبها)، بل لم يجد إلا أفضل صديقاتي؛ ليخونني معها، أرجوك أجبني فقط: لما أنتم كذلك؟ إلا يستطيع أحدكم بالأكتفاء بحبيبته؟»

أعادني ذلك الى الوراء قليلًا، إلى عاشقيّ القطار، هل انتهت حكايتهم بنهاية تلك الليلة؟ أرغب حقًا بمعرفة ما جرى.

أيعقلُ أنَّ الحب ليس إلا أحد الأقنعة المزيفة للوصول إلى ذاك الهدف، تلك الرغبة التي ستنتهي بعد نصف ساعة فقط.

من هو المسؤول عن هذا التشويه؟

تحدثتي إلى الشخص الخاطئ، فأنا متعب أيضًا، لم أستطع تهدئتها، لم أعلم ما يجب عليّ أن أقول في مثل هذا الموقف، فـأرتو صديقي أيضًا، ولا أرغب بـأن أكون سببًا في إنهاء علاقته مع محبوبته، لربما ليست سوى صديقة في نظره.

عندما يأست مني، ومن لامبالاتي اعتذرت وانصرفت الى غرفتها، لم أكن أعلم بأنها رقيقة المشاعر هكذا، لم يكن يبدو عليها ذلك، لم أكن أرى سوى قوتها، قصة أخرى دون أيّ حل، حالها كحال إخوتها من قبل، فمن عساهُ إنقاذي، بل والأهم من ذلك، فمن عساهُ ينقذُ شخصيات روايتي الآن؟

كلما حاولت الكتابة عن قصتي، ألتقي بشخص يرغمني على ذكره، وكأنني أشعر بانهم يستحقون الذكرَ فيها أكثر مني.

ذهبت الى سريري أخيراً، ذات الأفكار رافقتني، وكعادة الأمر نمت بعد أن غلبني النعاس.

*****

اليوم الرابع

– الثامن عشر من تشرين الأول ٢٠١٨ -

لا أعلم حقًا إن كانت الشخصيات التي ذكرتها سابقًا في رواياتي رئيسة، أم ثانوية، وما سبب ذكري لهم؟ ألم تتفجر كلماتي من أجلها فقط؟ دعوني وشأنني قليلًا، فلا بد لي الآن أن أذكر شخصية رئيسة، ليست في رواياتي فقط، بل وإنما في حياتي أيضًا، تسمى هذه الفتاة بـبيسان، أذكر أنني في إحدى المرات قلت لها مازحًا بأنَّ اسمها سيصبح أجمل إن قمنا بحذف السين منه، لا عليكم، مجرد دعابة لا أكثر، إنها في مثلِ عمري تقريبًا، لقد قاربت هذه الفتاة على إنهاء دراسة الماجستير في صناعة الأفلام، من احدى الجامعات الاسبانية، شردت حينها لبرهة من الزمن، فأرغب حقًا باختيار أفضل كلماتي لوصفها، لكنني تلعثمتُ كلما بدأت بالكتابة عنها، أو حتى بالتحدث عنها.

كانت رائعة في أسئلتها، في نقاشاتها، في توقيت نصائحها لي، كانت عونًا كبيرًا في بدايات غربتي.

يبدو نأها كانت تعلم جيدًا خفايا أوجاع الغربة، وكيفية معالجتها، ربما عاشت ذلك أيضًا في بدايات غربتها.

سيتعجب البعض منكم إذا علم بأنني لم أرها أيّ مرة، فكانت صديقة على إحدى مواقع التواصل الأجتماعي فقط.

أتمنى فعلًا أن أنشر حكايتي هذه، أتمنى ولو بمحض الصدفة أن تجد روايتي وتقرأها، ستعلم بلا شك بأنها المقصودة، فـربما اعتذارٌ أمام الملأ يرضيها، أعتذر عما حدث؛ راجيًا قبولك، سأذكر لكم بعض التفاصيل عنها لاحقًا، فلم أنتهي بعد، وربما سأحدثكم أيضًا عن تفاصيل هذه القصة الشائكة.

لنعد إلى هذا اليوم، لا شيء مميز، أوراق الشجر بدأت بالتساقط، غيومٌ ملبدةٌ في السماء، لا شيء مشجع، لا شيء يستحق الذكر.
تراود إلى ذهني، تركُ بعضٍ من هذه الصفحات بيضاء لأجلكم؛ علّكم قمتم بملئها بما يناسبكم، لكنني أخاف كثيرًا، فإنني متأكد بأنكم ستحتاجون الى آلاف الصفحات؛ لتكفيكم، ربما في سلسلة أخرى.

أجتاحتني عاصفة من الأفكار في هذه اللحظة، أين

أنا؟ واقفٌ في إحدى القطارات وبجانبي طفل على عربايته لا يتعدى عمره الثلاث سنوات، يرتدي طاقية لباتمان، تملكني حينها حنينٌ للعودة طفلًا، وددت أن ألاعبه قليلًا، لكنني لم أفعل.

أود كتابة هذه الأفكار قبل أن تختفي، لم أستطع إخراج دفتري ذاك، ذو اللون الاخضر الغامق، فأستعنتُ بهاتفي، بدأتُ أُطالعُ لوحة المفاتيح، تأكدتُ من مكان الأحرف، أخذتُ نفسًا عميقًا، وبدأت أصابعي تتحرك ذاتيًا بل مُكرهًا، كلمة تتلوها كلمة، تتلوها جملة، وها قد أصبحت هذه الجمل جزءًا من روايتي.

فتاة بسروال فضفاض، شعر أحمر قصير، نظارة سوداء، حذاء قديم، يدين صغيرتين تتشبثان ببعضهما، هدوءٌ يُصاحبه بعض التفكير وها قد بدأت تنظر إليّ مُتنبهة لنظراتي لها.

منكم من بدأ بالتساؤل، متى سأبدأ بسرد قصتي عنها؟ سألت نفسي ذات السؤال مرات عدة، تبادر حينها إلى ذهني بأن عليّ اقتناء جواب يُرضي قُرائي، فلا بأس ببعض من الخيال من وقت لآخر، فإن كانت السعادة حلمًا لا نجده إلا في طيات الكتب فقط، فمن أنا لأحرمكم من هذا أيضًا؟

إنهـــا في كل كلمة قلتها، إنها ذلك العجوز الخمسيني بهدوءه، تلك العائلة الفقيرة بسعادتها، تلك الشابة الفضولية بعنفوانها، إنها ذلك الصبي الصغير ببرائته، إنها تلك الروسية في مزيج قوتها وضعفها، إنها تلك الشابة ذات النظارات السوداء بثقافتها،وغرابتها، إنها في كل مكان، إنها الوجود واللاوجود في آنٍ واحدٍ.

لم أذهب الى محاضرتي اليوم؛ واضعًا ألف حجة واهية؛ لتخفيف ألم ضميري فقط. استيقظت متأخرًا، لم أحدد ماذا سأفعل فيما تبقى في هذا اليوم، ليس لي رغبة في فعل أيّ شيء.

أخذتُ حمامًا سريعًا؛ علّني أستعيد جزءًا من نشاطي المسلوب، شربتُ قهوتي، لبستُ ثيابي، وخرجت من المنزل ذاهبًا إلى المكتبة، فلم أدرس جيدًا منذ أيام واقترب أيضًا موعد امتحاني.

أشعلتُ سيجارة قبل دخولي إلى المكتبة؛ كي لا أخرج عند دخولي إلا بعد ساعات، انتهيت ودخلت.

طلابٌ أمام الآلة الطابعة يُصورون أبحاث او ما شابه، بعض الفتية في إحدى الزوايا يمرحون قليلًا بعد عناءِ محاضرة مملة، الكافتيريا ممتلئةٌ تمامًا، ولا مكان لأيّ أحد إضافي، انتهى

مسيري بباب المكتبة، ذهبتُ إلى الطابق الثاني فإذّ بي أجد أحدهم يجلس على مقعدي المفضل، في كل مرة يحدث ذلك، والعجيب في الأمر إنني في كل مرة أتعجبُ هذا الحدث، وكأنهم صمموا هذا المقعد خصيصًا لي فقط.

تملكني شعور الأشتياق في تلك اللحظة، أذكرُ أن آخر مرة لي كانت قبل عام ونصف تقريبًا في جامعتي الحبيبة في الأردن، شوقي لكل ركن في جامعتي، لمختبر المعادن، لقاعات التدريس، إلى مكاتب دكاترتي، إلى المكتبة، إلى تلك الجلسات في أواخر المساء مع البعض من الأصدقاء نتحدث عن ذاك وذاك.

انقضى كل شيء الآن وعليّ حتمًا العيش في واقعي، فلكل مرحلة وقتٌ ستنتهي به لا محالة.

اخترت أقرب كرسي فارغ وجلست، أخرجت دفتري وبعض الكتب وحاسوبي المتنقل، وبدأت بالفعل، مع أنني أحاول الدراسة جادًا، إلا أن عقلي في مكان آخر، في عالم آخر، أفكاري للحظات تتشابك مع بعضها وكأنها في معركة ضارية؛ لإثبات الأقوى فقط.

ولأن كل معركة تحظى بخسائر جمًّى فلا بد لي أن

أكون الخاسر الوحيد هنا.

جلست أمامي الآن شابة في غاية الجمال، أترك لكم حقًا فسحة صغيرة؛ لتتخيلوا جمالها فهي أشبه بأحد الملائكة الذين يعيشون على الأرض معنا.

أخرجت كتابًا في علم الرياضيات، أظن أنه يتجاوز الألفي صفحة، دفترٌ صغير وقلم، مشروبٌ غريب، رأسها الى أسفل وبدأت في الشروع الى العمل، بقيتُ بين الفترة والأخرى أتفقدها، فلن يجلس ملاكٌ أمامي في كل مرة، تركيزٌ غير محدود، لم تُعر هاتفها أيّ اهتمام لساعات متواصلة، هي والكتاب وبعض الورق فقط.

لم يبدُ عليها أيُ إرهاق بعض انقضاء كل هذه الساعات، بل وعلى العكس من ذلك، تشعر وكأنها تحصل في كل دقيقة على طاقة أكثر، كلما استطاعت في نهاية المطاف حِلّ المسألة بالشكل الصحيح.

أيُعقل أنها لا تواجه أيّة مشاكل؟ أم أنها تستطيع السيطرة على كل شيء؟

هل لكِ أيتها الشابة بسر وصفتك؟ لربما هي الأخرى

تعاني مثلي تمامًا، فمن ينظر إليّ الآن، وأنا أصارعُ لوحة مفاتيح حاسوبي؛ متنبهًا يظن بأنني في أحسن حال.

على أي حال، إن كنت أرغب في العودة طالبًا، عليّ التركيز ولو قليلًا؛ لاجتياز امتحان القبول في الجامعة التي أرغب في إكمال دراستي بها.

اعتدت على أن أشرب القهوة معها كل يوم، أن نجلس ونتحدث لساعات كلما سنحت لنا الفرصة، أن ندرس سويًا، حتى في وقت عودتنا للمنزل، لم نكن نترك هواتفنا لدقائق.

أتذكر أيّام الشتاء الباردة معها، كيف لي أن أنسى ذلك، وهي من كانت تشعرني بالدفء دائمًا في أشد أيّام الشتاء برودة.

كنت كلما نظرت إليها أحدثُ نفسي قائلًا: «من أنتِ يا هذه؟ من أين تأتين بكل هذه المشاعر والحب»؟

لم يخطر على بالي الآن سوى أولى رسائل عشقها، فقد قالت فيها: «...... «، رويدكم رويدكم فمن أنا لأخبركم بإحدى رسائلها الخاصة لي؟ ربما ستخبركم عنها عند لقائكم بها.

عن ماذا سأحدثكم أيضًا، أأحدثكم عن يوم ميلادي

التاسع عشر؟ عندما حضرتُ إلى الجامعة، فتفاجأت بقفلِ خزانتي مكسورًا، مِتُ غيضًا حينها، فتحته ووجدت باقة وردًا مكونة من ثمان عشرة وردة حمراء، وواحدة بيضاء مع مغلف صغيرٍ كُتِبَ عليه: «ثمان عشرة وردة حمراء تعبر عن مقدار سنين حبي لك، أما البيضاء فهي كنقاء قلبك.»

كانت شُجاعة تفعل أيّ شيء؛ لتنفيذ ما يدور في رأسها، هذه هي فتاتي، كنت أسأل نفسي ذات السؤال في كل مرة، من أنتِ يا هذه؟

من فعل كلّ شيء برفقتها، كانت في أدق تفاصيل حياتي، فجأة إلى وحدة عارمة، ألمٍ شديد، أكاد أتذكرها في كل موقف مهما كان، ما العمل الآن؟

فلتهدأ قليلًا، فلتهدأ، ولتكتب عن أيّ شيء آخر الآن.

عن ماذا سأكتب، عن ماذا؟

يبدو أنني سأضيف شخصيتين جديتين رئيستين الآن، أوس وإيلياء، فأوس سيأتي إلى هذا العالم بعد سبع سنوات وإيلياء بعد عشرٍ، إن أراد الله ذلك.

سيكون أوس طفلي الأول، سيكون جميلًا، فضوليًا،

غريبًا لأمه، وربما سيحصل مني على بعض من الذكاء وإن كان محظوظًا سيرثُ طريقتي في الكتاب، أما إيلياء ستكون طفلتي الثانية، يكفي أن تحصل على جمال أمها، ستكون مغرمة بأبيها بطبيعة الحال وستحاول دائمًا ارضائي.

هذه ستكون عائلتي، إن قدر لي الله ذلك، هذا ما سأبقى أحلم به، ربما سيبقى حلمًا في نهاية المطاف، لا أعلم.

*****

اليوم الخامس

– التاسع عشر من تشرين الأول ٢٠١٨ -

ضبابٌ كثيفٌ في الأرجاء، لبست معطفي الثقيل، وضعت لفحة على عنقي وخرجت، أذكرُ بأنني قد اشتريتها من إحدى البسطات من وسط البلد في عمان.

أعادني ذلك الى آخر شتاءٍ قضيته في عمان، كان شتاءًا مميزًا بالفعل، كيف لا وهي معي، وبالقرب مني وتشعرني دائمًا بدفء من قلبها! الشتاء عادةً في بلادي ليس بالقارص جدًا، نفرحُ جدًا ونخرج إلى الشوارع مسرعين إن تساقط الثلج، أطفالٌ كُثرٌ ينتظرون الشتاء، أملين في هذا العام سقوط الثلج، بعضٌ من أماني الأطفال ليس أكثر.

من ناحية أخرى فإن الشتاء في ألمانيا أجمل، هكذا يبدو لمن يرى الثلج المتناثر في جميع الأنحاء، فطبيعة المنطقة ترسم منظرًا خلابًا في مثل هذا الوقت من السنة، لكنني أشعر بوجود علّة، شيءٌ لا أعلم ماهيته، ربما ينقصه الروح، لا أعلم، أشعر فقط بأنّ ماهية هذا الشيء غير مكتملة.

لنعد إلى آخر شتاءٍ لي في عمان، كنت أقوم ببعض من الأفعال الصبيانية برفقة إخوتي وبعض من أصدقائي، كانت الفقرة المميزة في المنزل لدينا، عندما نجتمع في أواخر الليل على الصوبة، نضع بعضًا من الكستناء منتظرين استواءه، لكن الحقيقة هي أننا ننتظر بشغف انفجارَ إحداهن علينا، كان يضفي ذلك بهجة لا أعلم سببها حتى الآن.

كانت أختي أكثرنا ابتهاجًا بذلك، كنت أتسائل عن السبب دائمًا، لكنني كنت مبتهجًا لرؤيتها سعيدة.

لم أخبركم بأنّ لدي ثلاثة إخوة ولدوا معي في ذات اليوم، فقد أنجبت أمي أربعة أطفال توائم الى هذا العالم قبل ثلاثة وعشرين عامًا، لا تتعجبوا، هنالك ثلاثة أشخاص آخرين في هذا العالم يشبهونني إلى حد ما.

ربما أحدثكم فيما بعد عنهم، فلدي الكثير من القصص معهم، فكم من شخص لديه ثلاثة توائم في هذا العالم!

لنعد سويًا إلى حكايات الشتاء، لا أعلم سبب عشقي للشتاء، كما أنني لا أذكر سبب عشقي لها، أذكر جلوسي في إحدى المرات معها متحدثًا عن جمال الشتاء وروعته، فقالت: «لو أنّ الشتاء أنثى لقتلتها من شدة كلامك عنها»، ضحكت

يومها ولم أكن أعلم بأنها تعني ذك حقًا.

في هذه اللحظة كنت عاجزًا تمامًا عن المتابعة، أعني ذلك حرفيًا، لم أعد أستطيع تحديدَ ما يجب قوله، وما يجب أن يبقى مخفيًا عن الجميع.

لم أعد أعلم إن كنت أقوم بالصواب بكتابتي لهذه الرواية، أم أنها ستكون إحدى أخطائي أيّضًا، ربما تكون أكبر أخطائي، حقًا لا أعلم.

يبدو أنَّ الأفكار تتزاحم للخروج كلما كنت واقفًا في إحدى القطارات، فأنا الآن متوجه إلى المنزل؛ لنيلِ قسطٍ من الراحة. ربما سأعاود الخروج بعدها، أرغب في العودة إلى تلك الحديقة، إلى ذلك المقعد، ربما وجدت تلك الفتاة الفضولية أيضًا، إن وجدتها، لن أكون فظًا، بل سأخبرها بكل ما يرضي فضولها، ربما سأدعها تتحدث أيضًا.

لن أحكم عليها، لن تحكم علي، مجرد هذربات، بعضٌ من الأهازيج ستنتهي عندما يفارق كل واحد منا الآخر.

لم أعد أرغب بالكتابة أكثر من ذلك، أشعر بحالة من اللاشعور حال إنهائي لصفحة جديدة.

أرغب بالعودة إلى ذلك القطار أيضًا، علّني أجد مفتش التذاكر ذاك، لن أعير أي اهتمام سوى لصوت كلامه فقط.

أرغب بالعودة لإيجاد ذاك الطفل الصغير، لن أخاف حينها من مداعبته، ليتني أعود في الزمان سنتين الى الوراء، علّني أستطيع تغيير ما حدث.

لنغض الطرف عن الماضي قليلًا، ولنتحدث عن الحاضر، فمعدتي لم تعد تستطيع التحمل أكثر.

لا أعلم إلى أين أذهب، لذاك المطعم العربي المعتاد، بل أرغب في الذهاب إلى أحد المطاعم الألمانية، يقولون أن أطعمتهم جيدة ولذيذة، ربما سألتقي بفتاة أخرى، تُنسيني بعضًا من أحزاني.

بدأ البعض منكم بالنيل مني، والقول بأن جميع شخصيات روايتي إناث، وأنني لا أتحدث سوا عنهن، منكم من سيتجرأ بتلقيبي بزيرِ النساء مازحًا كان أم قاصدًا، لا عليكم فقد كنت، وسأبقى أمام الاخرين زيرًا للنساء، أرى دائمًا بأن نوع العلاقة بين الذكر والأنثى مختلفة، لا تتبع لأيّ من القواعد والخيارات، هكذا يبدو الأمر لي ولا أعلم صحة ذلك من عدمه.

في القطار، مع أحد الأصدقاء، دقَّ كتفي أكثر من مرة، وأشار إلى فتاة تقف في الممر تحت منظار عينينا، أخبرني بابتسامة: «أنّ هذه الفتاة من ذوقك».

تخاطرت الى مخيلتي أسئلة كثيرة حينها، فما الذي دعاه أن يعتقد أنَّ هذه الفتاة أو شبيهاتها هن من أحب، أو كما قال : «من ذوقي»، كيف استطاع معرفة ذلك؟ ما الذي اعتمد عليه ليصل إلى هذه النتيجة؟ لربما كانت كلمة عابرة لا أكثر، لا يهم ذلك كثيراً فلن أستطيع الوصول إلى المنطق الصحيح لذلك، لكنني متعجبٌ قليلًا، ففعلًا هذه الفتاة من نوعي المفضل، لم أستطع أن أكبحَ فضولي القاتل فسألته: «ما الذي دعاك لقول ذلك؟»، أجابني والابتسامة تعلو شفتيه: «إنها تلبس نظارة وتقرأ كتابًا، شعرٌ أشقر، عينان واسعتين ذو لون أزرق كالسماء»، قال لي بعدها: «أيكفيك ذلك كإجابة»؟ لم أتكلم بعدها بشيء، أكلمت ما تبقي من الرحلة بهدوء، وأحتفظت ببعض الأمور لنفسي.

أشعر بأنها تحدثني دائمًا، في صوت الرياح، في خرير المياه، من عبق الزهور، إنها معي في كل مكان، من أنتي يا هذه؟ أأنتِ حمامة الأيّل؟، بل أنتِ غصة القلب في هذا العمر.

*****

اليوم السادس

– العشرون من تشرين الأول ٢٠١٨ -

إنه يوم الجمعة، المفضل لدينا، في هذا اليوم تحديدًا نشعر جميعًا وكأننا لم نفارق أوطاننا، نذهب إلى الصلاة، متلهفين، من الجمعة إلى الجمعة.

المسجد ممتلئ تمامًا، نستمع إلى الخطبة باللغتين العربية والألمانية، ننهي الصلاة بفرح ونغادر.

نرى بعضًا من الأصدقاء، نتحدث قليلًا، ثم نذهب إلى أحد الأسواق العربية للتسوق.

نحاول بشتى الطرق أن نجعل هذا اليوم مميزًا في أغلب الأوقات، لذلك قررتُ برفقة الأحبة أن نُعد طبقًا أردنيًا مشهورًا.

المنسف، مع المعرفة المسبقة بالنتيجة، وأنه حتمًا لن يُضاهي منسف والدتي إلا أننا أعددناه بكثيرٍ من الحب، وحتمًا سيفي بالغرض في وضعنا هذا، قيلولة صغيرة بعد الطعام، لا

ينقص لإكتمال هذا اليوم سوى العائلة.

راحة كبيرة فقط عندما نتذكر بأنَّ غدًا عطلة، لا عملَ، لا شيءَ، مجرد راحة مُستحقة.

ما زلت في الطريق إلى الجامع، فهو تقريبًا يبعد عن منزلي نصف ساعة، وهو الوحيد في هذه المدينة الشيخ بتار خطيب ومسؤول هذا الجامع، تشعر بأنه يحمل على عاتقه بعض المسؤوليات الكبيرة وخاصة أننا في بلد غير إسلامي، يملك من الشجاعة ما لا يملكه أيّ خطيب في بلادنا العربية المسلمة، فلا يتحدث ضمن تلك الحدود المرسومة، أو أنه ملزوم بتلك الورقة الصغيرة وكل ما كُتِبَ فيها. يقوم دائمًا بإعطاء بعض النصائح والتوجيهات في نهاية كل خطبة، يحمل رسالة الإسلام على عاتقه بكل معانيها الحقيقية.

سـأكتفي بهذا القدر الآن، فمن دون شك لا أرغب أن أمُنع للدخول إلى بلدي بسبب بعضٍ من كلماتي.

لنعد الى المنسف، كان جيدًا جدًا، أكلنا الى حد التخمة، سيجارة، لتجد نفسك بعدها في السرير نائمًا. تعلمت كثيرًا من فنون الطبخ خلال فترة غربتي التي أصبحت الآن مائة وثمان وتسعين يومٍ، أملك آلاف القصص في هذه المدة القصيرة، لا

بأس إن كانت زوجتي لا تعلم أيًّا من فنون الطبخ، سأستمتع جدًا بتعليمي لها.

تحدثت إلى والدتي في المساء، تبادلنا الأهازيج والضحك، اعتدت أن أتحدث مع والدتي لساعات على الهاتف، وكما في كل مرة، لا تنسى تذكيري بالهدف الأسمى، وتذكرني دائمًا بأن فلان وعلان ينتظرون سقوطي؛ حتى يتسنى لهم السخرية، كلكم يعلم من أقصد تمامًا.

فوزي، ضياء الدين، رزان، هم أخوتي التوائم، أيّوب وبتول هؤلاء هم باقي أخوتي، أجمل شيءٍ حدث لي في هذه الدنيا، وهم أخوتي حقًا، فلم أستخدم أسماءًا مستعارة لذكرهم، رغم وجود أخوتي حولي دائمًا، إلا أنني لم أكن أشعر سوى بالوحدة، وحدة من نوع مختلف، كنت ألهو معهم كثيرًا، أحتجت إلى شيئ لم أكن أعلم في بداية الأمر ماهيته، لا أحد منا يشبه الآخر، ليس اختلافًا بسيطًا، بل اختلافًا في الجذور، في المبادئ حتى، في نوعية الموسيقى، في نوعية الطعام، في الهوايات، في الطريق، في الدراسة، تقريبًا في كل شيء.

سأتحدث سريعًا، فأختي وأخي أنهيا دراسة البكالوريس من جامعة مؤتة، أما أخي الأكبر فأنهى دراسته

من جامعة اليرموك، عائلة جامعية مثقفة بإمتياز.

أختي الأصغر بتول تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا وهي تستعد لامتحانات التوجيهي، فهي طبيبة العائلة المستقبلية ..

أما أخي الأصغر أيّوب، آخر العنقود فما زال صغيرًا، لكنه يذكرني بنفسي كلما نظرت إليه، بأفعاله من أصغرها إلى أكبرها.

لا أتمنى أن يكون مثلي، أتمنى أن أكون مخطئًا فقط.

جلست على طاولتي، بدأت بالتحضير، والاعداد؛ للتأكد من وجود كل ما يلزم لقضاء ما تبقى من هذه الليلة على مكتبي فقط.

فأنا عازمٌ في هذه الليلة على كتابة الكثير الكثير، أشعر بأن قلمي سيتحرك بمجرد ملامسته لسطح الورقة.

كوب القهوة يغلي، فقد كانت غالينا قد أحضرته لي قبل قليل، دفتري، قلمي، ألحان أبو وديع، علبة التبغ، ورق الدخان، بعض الفلاتر، لم يكن عليَّ سوى لف بعض السجائر لهذه الليلة العظيمة، كما كنت أظن أنها ستكون، لففتُ

خمس عشر سيجارة، أشعلت إحداها وسارعتُ الى الكتابة.

جزء من الثانية، وبدأ قلمي يداعب الورقة لوحده، يبدو أنني سأنهي نصف روايتي في هذه الليلة، هذا ما ظننته على أي حال، ما هذه الترهات؟ لم أستطع حتى إكمال قراءة ما كتبت.

لا أعلم ما الصيغة المناسبة لوصف تلك الكلمات، فهي ليست نثرًا، ليست خاطرة، إنها لا شيء.

أنظر حولي، تبقى ثلاثُ سجائر فقط، فنجان قهوتي فارغ، غرفتي مليئة بالورق المُقطع المتناثر، وعلى ماذا حصلت؟ ثلاثُ فقرات لا تتعدى الفقرة الواحدة منها الأربع أسطر.

أنقضت من ليلتي أربع ساعات ونصف، أهذا ما أستطعت الحصول عليه في نهاية المطاف؟

ربما انتهت كلماتي، ربما لست كاتبًا، ربما كان ثورانًا بسيطًا، وانتهى كحال أيَّ شيء في هذا العالم.

أحتاجُ إلى كوب قهوة آخر في الحال، إنها الثالثة والنصف ما بعد منتصف الليل، غالينا نائمة، من أيّن أحصل على كوب قهوتي المثالي الآن؟

في هذه اللحظة أُغلقت جميع أبواب العالم أمامي، كأنّ القهوة لا ترغب بضياع نكهتها على أمثالي، كأنّ قلمي يرفض مساعدة أبله مثلي، كأنّ كل شيء في هذه الغرفة يرفض وجودي، بل وكأن العالم بأسره يرفض أن أضيف حرفًا جديدًا إلى روايتي.

شعرَ سريري بكمية الإحباط والأذى الذين تملكاني حينها، فتح ذراعيه لي بترف؛كي أنال قسطًا من الراحة، ربما أكمل غدًا، نظرتُ إليه، شعرتُ بالانهزام، وعدم المقدرة، ذلك الضعف، نعم، ذلك الضعف الذي شعرت به عندما فارقتُ محبوبتي، لم يكن لي حينها أيّ سلطان، أو أيّ قوة لمنع ما حدث، ذلك يحصل لي الآن، مرة أخرى، أسأهزمُ هذه المرة أيضًا؟ على ما يبدو سأبقى مكتوف اليدين فقط، أطُالع من حولي كل ما يحدث مُشاهدًا.

ذهبت إلى المطبخ لتحضير ذلك الكوب، انتهيت، تحدثت بعدها مع قلمي قليلًا، أخبرته كم هي مهمةٌ لي هذه الليلة خاصة، توسلت إليه؛ لينقذني من هذه الليلة.

بدأت بالكتابة مرة أخرى، لا تراهات هذه المرة، بعضٌ من الجمود لا أكثر، لا أفكار، لا كلمات، ورقة بيضاء تمامًا.

لا بد أن العالم يكرهني كثيراً، رفعت عيني مستسلمًا، فوقعت حينها على تلك الصورة، تلك التي أضعها على الجزء الأيمن من مكتبي، إنها صورتي مع عائلتي، بمناسبة تخرجي في أحد الاستوديوهات القريبة من مكان سكني في عمان.

تلك النظرة أعادت الحنين إلى قلبي، فجرت ما بداخلي، بدأت أفهم قليلًا ما يجري من حولي، يبدو أنني بحاجة ماسة في كل مرة الى المسبب المناسب لرفع نسبة الأدرينالين في دمي، حينها سأفجر كلماتي على الورقة محافظًا على ثوراني.

من منهم يستحق الذكر أولًا؟ أمي، أبي، أخوتي، سأكون صادقًا على ما يبدو سأحتاج إلى الكثير من الورق والحبررواية خاصة للتحدث عن أخوتي ووالديّ، فقد أخبرتكم سابقًا بـأن قصصي معهم لا تحصى.

ربما سأحتاج الى روايتين أو ثلاثة للتحدث عن أبي، لكنني حتمًا سأحتاج إلى سلسة لا نهاية لها للتحدث عن والدتي.

لا أجد رغبة بالحديث عن أيًّ منهم في هذه الأثناء، ربما فيما بعد.

بعد ساعتين متواصلات في الكتابة، والناتج، لا شيءَ جديدٌ، كما عودني قلمي ذاك، فلن يُعينني أبدًا، لذلك قررت الذهاب إلى المطبخ لتناول الطعام فأنا جائع.

تناولت قطعة من البيتزا، أذكر أن لها في الثلاجة شهرًا أو أكثر، لا عليكم، فلم أمت حتى الآن، فقلمي ما زال يستمر بالكتابة.

شعرت بغصة وأنا أتناولها، شربتُ قليلًا من الماء، تراود إلى ذهني حينها أحد الأقاويل التي سمعتها مؤخرًا وأنا أقتبس الآن: «إلى الماء يسعى من يغص بلقمة، فإلى أين يسعى من يغص بالماء.»

ما الذي قصده كاتب هذه العبارة؟ أيستطيع أحدكم إخباري؟ شعرت بوجود معاني خفية ،تحتاج لمن يقرأ هذه الكلمات بعمق، لمتخصص في حِلّ شيفرات اللغة العربية.

أين أنتِ يا حمامة الأيل؟ أين أنتي يا غصة القلب؟ لم أعلم بأن ألم الفراق بهذا المرار، في كل ليلة بل في كل لحظة تمر من عمري، أتمنى فقط أن أحادثها، أن أسألها عن حالها، في يوم فراقنا، طلبتُ منها أن تعدني إن احتاجت شيئًا بأن تخبرني على الفور، أيُعقل أنها لم تعد بحاجتي بعد الآن؟ أيعقل أنها

بخير؟ إنه اليوم السابع، إلى متى سأنتظر؟ ربما سبع سنوات، ربما لن يجدي الانتظار، تمنيت بكل صدق أن أكون شاعرًا، أو ممن يكتبون نثرًا، لا يهم، المهم أن أستطيعَ البوح بما في داخلي، ربما إن كتبت لها ستعود لي، حتمًا ستعود، أشعر بأنّ الكلمات مفتاحٌ لقلبها،

ذاك القلب؟ من منكم يدري عن رقة قلبها، يراودني شعورٌ بأنها جالسة مثلي على مكتبها الآن، تكتب روايتها الخاصة وسأكون حتمًا بطلها، كنا وسنبقى أبطالًا لقصتنا، يبدو أنني عاجلًا سأخبركم، فمهما حاولت تجنب الحديث عن سبب فراقي عنها، أجدُ نفسي أقترب من ذكره مُكرهًا، ناهيك عن تلك الطاقة الهائلة التي استنزفها يوميًا لأبقى هادئًا، لم أعد أملك الكثير، لذلك سأصمت.

يبدو أنني هُزمت في هذه الليلة، سأرضى بتلك الذراعين التي مُدتا لي سابقًا، إلى سريري، ربما أنتصر غدًا، فإن هُزمت في معركة واحدة، فالنصر في هذه الحرب ستكون لي لا محالة، تخاطر إلى ذهني أنه لربما لن أبقى على قيد الحياة إلى الغد، ربما لن يعلم أحد بهذه الصفحات المكتوبة على أحد دفاتري البالية القديمة، دفتري الاخضر الغامق، ربما أعاود رؤيتك، ربما. حتى تلك الشموع التي أضئتُها في بداية ليلتي،

بالكاد تستطيع رؤية ضوئها الخافت، أمهلها ثلاثة وعشرون ثانية فقط وستنطفئ، حتمًا ستنطفئ!

كحالِ أيّ شيء، لا بد لنا من الوصول للنهاية .. وسأبقى أسأل نفسي، متى ستحينُ نهايتي؟

*****

اليوم السابع

– السابع والعشرين من تشرين الأول ٢٠١٨ -

إنَّه السابع والعشرين من تشرين الأول، اختفت سبعة أيام من حياتي، وكأنني لم أعشها، ظننت بأنني سأستيقظ في صباح الحادي والعشرين مستعيدًا جزءًا من عافيتي؛ لإكمال مهمتي.

احتجت إلى سبعة أيام للملمة نفسي، لا أعلم ما هي حكايتي مع الرقم السبعة، بل ما هي حكايتي مع الرقم ثلاثة وعشرين،

لا أعلم ما الذي تحطم في داخلني، هل هو قلبي؟ روحي؟ ربما كبريائي، لن أرضى بذلك، لا يُعقل أن أستسلم أيضًا، لسلب أيام حياتي، ذكرياتي لهذه الأيّام قد سُلبت.

جُل ما أذكره أنني أستيقظتُ في الصباح؛ لأتفاجأ بأنه صباح السابع والعشرين، يبدو أن حالة من الهذيان تسيطر عليّ الآن، فلم يجدي أيّ شيء معي، أخاف أن أعاود الكتابة وأنا في هذه الحالة، أخاف أن أبدأ بالكتابة عن أحلامي، عن

خيالي، عن كل شيء تمنيتهُ برفقتها، حينها سُتدفن الحقيقة التي لم أجد مخرجًا لها سوى على ورقتي.

وعلى سبيل السعادة المؤقتة، فإنني أنتظر غدًا بفارغ الصبر قدوم صديقٍ، هو بمثابة أخي أيضًا .. سيأتي صديقي مصطفى غدًا؛ لرؤيتي، لن أضطر إلى اختراع اسم مستعارٍ له بين طيات كلماتي هذه، أريد أن يعلم الجميع من هو، إنَّه الأقرب لي لما يقارب النصف عام.

سيبقى ماكثًا حتى نهاية عطلة الأسبوع الحالية، يبدو أنني على موعد مع بعضٍ من السعادة الحقيقية، بعضٍ من المرح، بعضٍ من النقاشات التي في طبيعتها لا تخلو من الفطنة والذكاء.

اعتدنا في الأشهر القليلة المنصرمة، بأن لا نفارق بعضنا، مع أننا نبعد بالمسافات ما يقارب الثلاث مائة كيلو متر فقط .. ليس هنالك ما يدعو لكل هذا الاستهجان، والذهول، بل وإلى كل هذا التعجب الغريب على وجوهكم، ألم يسمع أحدكم عن نجاح علاقة الأصدقاء؛ أولئك الذين يفصل ما بينهم مئات الكيلومترات، لربما يفصل بينهم بحارٌ، ومحيطاتٌ، مع ذلك لو أنك تواجدت بينهم؛ فسوف تراهم وكأنهم عاشوا سويًا،

ستشعر أن القدر يريد بقائهم سويًا، حتى أنهم لو ألتقوا ثانية في زمن آخر دون معرفة مسبقة؛ فسوف يكون الناتج واحدًا في كل مرة؛ أصدقاء للأبد.

يعيش مصطفى في إحدى المدن الالمانية ويمُني النفس لدراسة الصيدلة أو الطب في المستقبل القريب، نسيت أن أخبركم بأنه يبلغ تسعة عشر عام فقط .. مع أنني أرى فطنته وذكائه، حكمته المتواضعة، ومثوله لقوانين العقل والمنطق، لكنه لا يخلو أيضًا من المرح، والمحبة، إنَّه محب لتلك اللحظات التي يقوم بها فجأة قائلًا لي: «تروح ع فرانكفورت هسا؟ «(تبعد عنا تقريبًا أربعة مائة كيلو متر)، يعشق التجوال، لا يشعر بلذة الرحلة إن كان مخططًا لها .. إن كنت أحد أصدقائه، فاعلم أنك بين ساعة وأخرى ربما تكون قد سافرت الى دولة أخرى، لربما في قارة أخرى أيضًا.

لن أنسى أيضًا أول أسابيع غربتي، فلقد كانت برفقته، إنها تحوي في طياتها الكثير الكثير من القصص، المضحك منها، الغريب، وأكثرها تلك التي تحمل في طياتها أحلامنا وطموحاتنا، كانت وستبقى من أجمل الأيام التي قضيتها إلى يومي هذا.

وكما أسلفت سابقًا، فلقد أعتدنا على اللقاء، أعتدنا على التحدث كل يوم، حتى أننا من دون قصد حددنا موعدنا

لهذا الاتصال .. وكأننا نشعر بأنه أفضل الأوقات للحديث، للبوح، لسرد مجريات الحياة، اعتاد مصطفى على أخذ بعض النصائح مني، بحكم فرق العمر بيننا، وقد كان يشعرني ذلك في كل مرة بأنه يبحث عن الأفضل لنفسه دائمًا.

لن أعتذر هذه المرة .. أرغبُ في أن أُطيل الحديث هذه المرة، وعلى ما يبدو بأنني سأخصص جزءًا لا بأس فيه لهذا الشاب بين طيات حكاياتي، فإن كانت مشاعر الحب لمحبوبتي عظيمة، ذلك لا يخفي أثر الأصدقاء ومحبتهم، فلا معنى للحياة إن كانت دون صديق حقيقي؛ تشاطره مغامرات هذه الحياة، ولآخر العمر.

سأخبركم بشوقًا عما سيحدث معنا خلال هذه العطلة، أعتقد أنَّ من يقرأ الآن يستحق بعضًا من السعادة، وإن كانت لحظية، ستبقى سعادة .. وحتمًا أنا أستحقها كذلك.

لنعد إلى حمامة الايل .. إلى غصة القلب .. إلى هُيامي .. إلى والدة أوس .. إلى عائلتي، كنت قد أفصحت بالبداية، بأنني لم أكتب هذه الرواية إلا من أجلها، ربما أكُفر بها عن خطأي،

وكما هو الحال دائمًا .. لا أعلم من أين سأبدأ، أموت

خوفًا، أشعر بخفقان شديد في قلبي كلما فكرتُ بأن أبدأ بالحديث عنها، عن الماضي، عن الأوجاع؛ تلك التي ظننتُ بأنني قمتُ بتضميم جراحها جيدًا، فماذا سيحدث لي إن تجرأتُ بطريقة أو بأخرى لأخباركم بكامل قصتها؟

لنعد إذًا عامين إلى الوراء، إلى ذلك اليوم، إلى تلك النظرة، علمت حينها بأنها مختلفة، بأنها ستكون كل شيء هي هذه الدنيا، بأنها ستكون شريكة حياتي، وحتى آخر أيامي، تالله لو أنني قابلتها في أيّ مكانٍ أو أيّ زمان، كانت ستبقى كل شيء لي في هذه الدنيا الفانية، لكنني لم أكن أعلم بأن القصة ستنتهي بعد عامين فقط، لم تقترب حتى إلى العامين، تمنيت أن أفعل شيئًا حينها، تمنيت لو كنت أملك القوة الكافية للتغيير،

ذلك الذهول، كثرة التفكير، حتى أنني إلى غاية يومي هذا، لا أستطيع وصف ما كنت أشعر به، ما كنت وما سأبقى أشعر به طالما أنّ الدماء ما زالت تتدفق في عروقي.

عن ماذا أخبركم .. أأسرد عليكم بعضًا من رسائل العشق التي كنا نتراسلها دائمًا، أم أخبركم عن تلك اللحظات المرحة والفرحة التي عشناها، أأخبركم عن بعض الأمور التي

كنا وسنبقى نعشق فعلها سويًا؟ أفعالٌ صبيانية أشعر من خلالها بأنني ما زلت طفلًا أحمل براءة الطفل في داخلي..

منكم من يتساءل أيضًا لما لم أذكر حتى الآن أيّ شيء من يومي، أيّعقل أنه لم يحدث به أيّ شيء يستحق الذكر؟

إن كنت سأفعل .. فلن أتحدث إلا عن أولئك الأشخاص الذين قابلتهم مصادفة، فلم أرى فيهم إلا محبوبتي، فأفضلُ الآن عدم البوح؛ حفظًا لبعض من كبريائي المسلوب.

*****

اليوم الثامن

– الثاني والعشرين من شباط ٢٠١٩-

الكثير منكم ينتظر بشغف حديثي عما جرى بتلك العطلة المجنونة التي انتظرتها بفارغ الصبر، أعتذر منكم، فلم أستطع الكتابة لقرابة المائة يوم، لا أعلم السبب الحقيقي لذلك، لا أعلم حتى الآن، جُل ما أعلمه، أنني لم أشعر بانقطاعي عن الكتابة، وكأن ذلك لم يحدث لي من قبل، وكأنني لم أكن أقضي ساعات الليل كاملة بالكتابة، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأنني كنت في حلم عميق لم أستطيع أن أفصله عن واقعي .. خاويًا من المشاعر المتضاربة، خاويًا من الأحرف والكلمات، مجردًا من أيّ معنى شعوري، قد يُضفي لتلك الحياة البائسة بئسًا جديدًا، حتى إنني أكاد أقسم بالله، فأنا لا أعلم السبب المخفي في أحلك بقاع قلبي وراء ضغطي على ملف هذه الروايـة، هذه العشوائية القاتلة، هذا التضارب المجنون، هذه الآفة التي ستنهي حياتي يومًا ما، أيستطيع أحدكم بإخباري، ما الذي يحدث لي، إلى أين أتجه، ماذا سأصبح بعد عام من الآن؟ أخبرتني إحدى صديقاتي بحاجتي الماسة لإستشارة

نفسية، فنحن بالقرن الواحد والعشرين، فلا بأس إن ذهبت للاستشارة، كما لو أنني أعاني من زكام موسمي أو ما شابه، ربما لا أعلم السبب الحقيقي لعدم رغبتي بالذهاب، ربما لا أعلم من أنا للحظتي هذه، ربما لا أرغب بكشف هويتي الحقيقية لأحدهم، لربما سببٌ آخر، لذلك عوضًا عن ذلك سأكتب.

لكنني في ذات الوقت أجهل كُل الجهل أهمية الكلمات ومعانيها، فأبسط ما يمكن أن أقوله حتى أشرح لكم، هي أنني لا أعلم عن ماذا سأتحدث، بماذا سأبدأ، أيعقل وجوب حديثي عن كل شيء؟ أأتحفظُ على البعض من الأسرار؟ تراءى لي للحظات أنني في أحد العوالم الوردية، تلك التي تحصل فيها على كل ما تمنيته في طفولتك .. كيف لي أن أنسى قباحة هذا العالم، كيف لي أن أتجاوز ما يحدث حولي، أنساني الآن أحد الأصدقاء كل

ذلك، فهذه البسمة والفرح اللتان تعتليان وجهه لا تقدر بثمن، ها قد نجح أخيرًا في امتحان إلتحاقه للجامعة، سيدرس في مدينة مجاورة لمدينتي، ربما ألتقيه أكثر الآن، ربما أحصل برؤيته على مخدر ينسيني بعضًا من قبح ما حولي، لا أعلم إن كان كل ذلك بسببها، بسبب شعور اشتياقي لها، ربما شعور الغربة المر، ربما بسبب شعور البعد عن والدتي

وأهلي، ربما بسبب فقدان الكثير من الأحبة، لم أعد قادرًا على تميز ماهية مشاعري، فلم أعد أشعر بهذا أو بذاك .. ستكون المصيبة الأكبر إن كان شعوري باللاشعور، هو شعوري الأعظم، ما هذا الشعور الذي يتملكني؟ ربما بدأت أفقد صوابي حقًا.

*****

اليوم التاسع

- السادس من اب للعام ٢٠١٩ -

بحثت كثيرًا في حقيبتي عن قلمي الأزرق، ذلك القلم الذي رافقني في بداية روايتي، صديقي الذي يعلم جميع أسراري، بحثت ولم أجد إلا قلمًا أحمرًا قديمًا، لا أعلمُ سبب وجوده في حقيبتي، فاضطررتُ أن أستعين به أسفًا فشلال الأفكار عاد إلى التدفق، أحتاج الآن إلى الكتابة لا محالة.

يبدو ان هنالك ما يقلق والدتي، فارتفعت نسبة اتصالاتها في الآونة الأخيرة، حتى أن مواعيد الاتصالات تُثير الريبة والشك.

قالت لي:»لقد شاهدت كابوسًا لثلاث أيام متتالية «ولم تفصح بشيء آخر، لكنني متأكد بأنه لي علاقة بهذا الكابوس بطريقة أو بأخرى.

أنَّه يوم بارد، درجة الحرارة في هذه الساعة لا تتجاوز الخمس درجات، صفير الهواء المخيف، لم يتبقَ أيّ ورقة على الأشجار، تلتفتُ من حولك فلا تجد إلا المعاطف الشتوية،

مصحوبة بالقبعات المخملية، بالإضافة لبعض الأوشحة ذات الألوان الجذابة، كل ما يمكن أن يستخدمه المرء لحماية نفسه من هذا البرد القارص.

تراود الى ذهني حينها تساؤلٌ، بالأحرى هي فكرة وفحواها بسيط للغاية، إن البشر بطبيعتهم أذكياء، فها هم يفعلون ما أمكنهم لحماية أنفسهم من البرد القارص، فلو قمنا بتتبع مسيرة الإنسان من بداية الوجود حتى هذه اللحظة؛ لوجدناها مسيرة حافلة أساسها البقاء، والصمود، والتكيف للعيش، راودني أيضًا تساؤلٌ آخر الآن، يتعرض الإنسان بهذا العصر خاصة ومنذ الأزل لحملات شرسة لتغيير الفكر والثقافة، أستطيع أن أقول أنَ بعضها يُعدَّ تشويهًا، بل لم تعد الحروب برفع السيوف كالسابق، فنتائج الحروب الفكرية، والثقافية، بلّ والاقتصادية أكبر بكثير. وإن أردنا أن نرى قوة خط الدفاع لدى البشر بهذا المنحى، نراه ضعيفًا ركيكًا، بعضٌ من الرياح كافية بهزه من جذوره، وسيبقى السؤال الأهم، ما السبب؟

لست في أفضل أيامي، بعض التعب الجسدي، قلة النوم، فلا تتجاوز ساعاتُ نومي الأربع في أفضل الحالات، وكثرة الأفكار في ليلي، ويبدو أنَّ هنالك علاقة وطيدة غريبة بين كثرة الأفكار وجلوسي في القطار، لذلك سأقضي نصف عامي القادم

متنقلًا به؛ لإنهاء روايتي على ما يبدو.

يجلس أمامي أحد الأصدقاء الجدد، إنه أحد أقرباء أصدقائي، أتوقع أنَّه من عمري أو يكبرني بعام أو عامين على الأكثر، نحن الآن في الطريق متوجهين إلى المنزل، يجلس بمحاذاتي صامتًا، إنني الآن أكتب على دفتري الأخضر الغامق، ويبدو عليَّ الانغماس، لكنه لم يكترث لأيّ من هذا، صامتًا عيناه تتجول في المكان فقط.

عجوزٌ في الطرفِ الآخر مع طفلة، على ما يبدو أنها حفيدته، ها هو يلاعبها ويداعبها، وهي تفيض من عينيها البراءة، البراءة التي فقدناها عندما كبرنا، ينظر إليَّ هذا العجوز باستغرابٍ، يحاول اختلاس النظر كلما استطاع؛ لمحاولة معرفة ما أكتب، يبدو أنه لم يعتد على رؤية شخص يقضي وقته بالقطار كاتبًا.

كنت أرغب أن يحدثني ويسألني عما أكتب، كنت أرغب بشدة بالبوح له، ربما لإرضاء فضوله، ربما ليتسنى لي معرفة رأيه بما كتبت، ربما، سأغلق دفتري آسفًا، فقد انقضى الوقت مسرعًا، وها قد وصلت إلى وجهتي، ويجب عليَّ الآن العودة للعيش في عالمي، في واقعي، من أجل حلمي فقط.

*****

اليوم العاشر

- الخامس من تشرين الاول ٢٠١٩ –

لم أعد أعلم السبب الرئيسي للكتابة، لم أعد أعلم لماذا أقوم متلهفًا في بعد الأحيان مسرعًا نحو دفتري، ألم يكن سببي في الكتابة بُعدي عنها؟ ألم يكن السبب بقائي وحيدًا؟ ألم يكن السبب عدم قدرتي على فعل شيئ يذكر سوى الكتابة؟ إذًا لماذا أستمر في الكتابة الآن؟ أليست الآن بجانبي؟ ما حاجتي للكتابة إن كانت معي في لحظتي هذه؟

بدأتُ قصتي بوابل من الاسئلة المعقدة، وها أنا الآن أُضيف نصف درزة جديدة فقط دون الحصول على أيّة أجوبة.

فكلما زادت مدتي في الغربة تزداد حياتي تعقيدًا، الكثير من العمل يُرافقه الكثير من الدراسة، ناهيكم عن كُثرة الهموم اليومية التي أشعر في بعض الأحيان، إنها معقدة أكثر من حياتي، تحتاج الحياة هنا لبذلِ كثيرٍ من الجهد للاستمرار، بعضٌ من التقاعس يجعلك متأخرًا كثيرًا عنهم، صدق من لقبهم بالماكينات، لا يتعبون أبدًا. مع ذلك يعرفون السُبل

الحقيقية؛ ليصلوا لنشوة الاستمتاع الحقيقي في وقت راحتهم، تجدهم يعملون بكد وبلا كلل، عندما تراهم في عطلة نهاية الاسبوع أو في إحدى عطلهم الرسمية، ستحتاج برهة من الزمن للتعرف عليهم، يعيشون لذة الاستمتاع بكل جوارحهم، بكل ما لديهم، لأنهم يعلمون بأنه في نهاية هذه العطلة ستنتهي المتعة، فسيعودون حتمًا إلى العمل كسابق عهدهم .. دعونا منهم الآن، سأحتاج إلى عشرات الصفحات؛ لأنهي كلامي عنهم؛ ولا أظن أنَّ أحدكم استمتع بالقراءة عنهم، حتى أن قصتي لا تحتمل أيّ إضافة.

كما أسلفت سابقًا، أصبح لدي الآن حياة، عمل ثابت، دراستي الجامعية، والأهم من ذلك، تلك الفتاة التي حلمت دائمًا أن تكون بجانبي، هي الآن في ألمانيا كما أسلفت سابقًا، لم يتبقى لها سوى هذا الفصل لتنهي متطلبات النجاح لدرجة البكالوريس في تخصصها، تغيرت الحياة كثيرًا عند وصولها، أذكرُ أنني انتظرتها ساعتين قبل موعد لقائنا في يومها الأول لشوقي لها، عندما رأيتها قادمة أصبت بحيرة قاتلة، فتسائلت هل أحتضنها؟ أم أكتفي بسلام اليد المعتاد؟ عاد قلبي ليضخ الدم بقوة شديدة، أشعر بقدماي تتراقصان، عُدت أشعر في ما حولي من جديد، أصبح لكل شيء من حولي معنى في

لحظة واحدة، أستعدتُ ابتسامتي الضائعة، كل ذلك في بعض لحظات لا أكثر. وما أندر هذه اللحظات في حياتي، ستخلد ما دمت أتنفس.

في طريقي الآن إلى احدى المدن الألمانية؛ لزيارة بعض الأصدقاء، الذين طال الشوق لهم، تجلس بمحاذاتي طفلة لا يتجاوز عمرها الثمان أو التسع سنوات، سمراء، أستطيع أن أرى على الأقل سبع جدائل جميلة، يبدو على ملامحها هذه أنها من أفريقيا، لامست هذه الفتاة شيئًا ما بداخلي، كلما سرقتُ نظرة إليها أرى في عينيها هدوءًا غير مسبوق لطفلٍ بعمرها، ناهيك عن برائتها، ها هي الآن ترمقني بنظرة خاطفة جميلة مع ابتسامة كفيلة بتغيير مزاجي السيء، تنظر إلى يدي وأنا أكتب، تنظر إلى حاسوبي، تحاول جاهدة فهم ما أكتبه، شـأنُها شأنُ ذلك العجوز، كم نتمنى العودة لطفولتنا، حتى لو دام ذلك للحظات فقط، أرغب في العودة طفلٍ، حتى يتسنى لي مشاهدة الكاتب رابح، وأبطال الديجتال؛ بحماسة شديدًة لا يمكن لي وصفها، أرغب بالذهاب للسوق مع والدتي، حتى يتسنى لي إستعمال سلاحي السري، في حال عدم موافقة والدتي على شراء حلوايّ المفضلة؛ البكاء. لم نكن نأبهُ لشيء، كان أكبر همومنا كيف سنتطيع إقناع أمي بأن نتأخر بالنوم

ساعة أخرى لنتابع برنامج حكايات كان يا ما كان، بل سأخبركم عن أكبر همٍّ تشاركته مع أخي الأصغر ضياء، فلقد كنا نجلس بالساعات غارقين بالتفكير في مقدرتنا على توفير دينارٍ كاملٍ من مصروفنا، حتى نستطيع في نهاية الأسبوع شراء شريطٍ لعُبتنا المفضلة، فياليت شرائط الألعاب بقيت كما هي ولم تتحول إلى ذاكرة حاسوب لم يعد في مقدرتها تحمل إضافة أيّ شيء آخر، سأخبركم أيضًا عن إحدى حيلِ أخي ضياء، كان يتركني مع أخي فوزي نتشاجر، حتى يتسنى له شُربُ أكواب العصير خاصتنا، حتى أن كاميرةَ والدتي إلتقطته في إحدى المرات يقوم بذلك، فقد كانت أمي تعشق تصوير طفولتنا ليتسنى لنا رؤيتها عندما نكبر، أُجزم أن لديها ما يقارب المئة شريط، أن لم يكن أكثر، ما ذهب لا يعود أبدًا، ليس علينا سوى القيام به بشكل صحيح حتى يترك فينا ذكرى جميلة، فعن ماذا سأحدثكم الآن؟ عن ماذا سأكتب؟ في بعض اللحظات أشعر بأني سأحتاج سبع ساعات من الكتابة المتواصلة؛ لسرد كل ما يدور في مخيلتي، تتلاشى هذه الأفكار مُتسارعة عندما أضع أصابعي على لوحة المفاتيح، وكأنه حُكِمَ عليّ بالتحدث مع نفسي فقط .. يُمنع البوح أو حتى التحدث مع آخر، سئمت جدًا من شخصيتي المزاجية المرهقة التي تبحث دومًا عن المثالية المطلقة، التي لن أجدها مهما حاولت جاهدًا، أمقت

نفسي في بعض الأحيان، أريد التصرف بعفوية، دون الحاجة إلى ترتيب الأحرف والكلمات، أريد أن أفعل كل ما أريد، وأن أقول كل ما يجول في خاطري، دون الخوف من حكم فلان وعلان على كلامي أو حتى أفعالي، فإن كنت عربيًا، ولم يسبق لك سماع هذه الجملة، «أنظر إلى ما فعله أو أسمع ما قاله »، فأنت حتمًا، لم تكن تخرج من منزلك أبدًا، هذه الطريقة العربية المقيتة في الحكم على كل شيء نصادفه في حياتنا.
جعلتني هذه الكلمات أتذكر أحد المواقف المشابهة، ففي أحد الأيام قررت أنا وصديقتي الذهاب إلى حفلة دُعينا عليها من قبل الجامعة وهي حفلة للترحيب بالطلاب الجدد، وهي فرصة جيدة لهم؛ لتكوين صداقات جديدة قبل بدء الدراسة، كما في كل حفل، هناك من يسرق الأضواء عن الجميع، كان هذه المرة شاب، تفاجئت فيما بعد بأنه فلسطيني، كان راقصًا محترفًا جذب جميع الحضور لمشاهدته، كان يرتدي بنطالًا ضيقًا جدًا، وقصيرًا أيضًا، وشلحة بيضاء فضفاضة، للصدفة أستطعت أن أعلم بأن هذا الشاب يتحدث خمس لغات بطلاقة، ومتفوق جدًا بدراسته، لكن كل ذلك ذهب مهب الريح، فلن يستطيع أمثالهم من كبت قهقهات الضحك على ملابسه، وكأن المصيبة تكمن في ملابسه فقط.

ولتكتمل ليلتي جمالًا، ها هي رفقة السوء خاصتي، قد أعلنت دخولها المدوي لساحة الرقص، فها هو مرتضى أخذ زمام المبادرة، ليشعل أجواء هذه الليلة الحارة بطبيعتها، فلم يتجرأ أحدهم حتى بالرقص إلى جانبه، خشيةٍ أن يتعرض للسخرية ممن هم حاضرون، فلم يسبق لي أن رأيت أحدًا يستطيع التفوق عليه في الرقص، فهو أيضًا صديقي المقرب، أحمقٌ كبير، لا مبالٍ، كسول، فلو تركته في فراشه ثلاث أيام متتالية، وعدت لزيارته؛ فسوف تجده نائمًا كما تركته، لا يُعير أيّ إهتمام لمناحي الحياة العملية، لكنني في ذات الوقت لا أستطيع إخفاء إعجابي بحنكته؛ خاصة بتلك المشاكل المتعلقة فيما بيننا، حتى أنك تجده في أكثر المواقف الصعبة هادئًا، مُدركًا لكل كلمة يتفوه بها، وكما في طبيعة الحال، فأن تواجد مرتضى فلا بد لك من رؤية عامر حتمًا، أشقر، ذو عينين عسلِيتين واسعتين، طموحٌ، ذو رؤية مستقبلية، حالمٌ، عاشقٌ للنساء؛ حاله كحال أي شابٍ خرج حديثًا من قفصه إلى عوالم الحياة في أوروبا، يرغب في دراسة الطب أيضًا، والألتحاق بكل زملاءه العرب، ممن سبقوه في كليات الطب الألمانية، هذا في حالة تنازلهم عن مقعدًا في المقام الأول.

حضرَ أيسر أيضًا، أتى ليخبرني عن مشكلته، خرجنا

لإستنشاق الهواء، وليتسنى لنا الحديث، لبُ حكايته ستكون عن ماريا، أن لم أكن مخطئًا، فهي من أصل كازاختستاني، تبلغ من العمر عشرين عامًا، وتدرس اللغة مع صديقي، لأسبابًا لن أستطيع ذكرها، لم تعجب هذه الفتاة به، مهما حاول الفتى إثارة إعجابها لم يكن يحصل منها على أيّ فرصة، كما يقولون: ستبقيه دائمًا في دائرة الأصدقاء، هذه لو أستطعنا حقًا وضعه في هذه الخانة، لذلك؛ وبعد هذه المحاولات الكثيرة، أبدت في مرة رفضها التام لكل ما يقوم به، بطريقة قاسية انتهت فيها كل الآمال، الأحلام، وعاد صديقي إلى عالم الواقع المر، فلم يجد نفسه إلا ماسحًا لكل شيء يتعلق بهذه الفتاة؛ لينساها، وسأخبركم بصدقٍ شديد، لقد نجح نجاحًا باهرًا إلى غاية لحظتنا هذه.

لكن أساس مشكلته كان بأن صديقتنا العزيزة ماريا تواصلت معه من رقمٍ آخر، وبدأت بالسؤال عن الحال، الحياة، الدراسة، العمل، بل بدأ يبدو الأهتمام في مضمون رسائلها، فذلك أشعل نيران العشق من جديد، لم يأبه لجروحه، بل أن آثارها واضحٌ للعيان، لم يأبه أيسر إلى كل ذلك، أراد أن يعلم أن كانت عودتها من أجل عشقٍ لا يعلم مصدره، كل ما يريده أن يخبره أحدهم بأنها عادت من أجله، أتمنى أن تكوني

رقيقة يا ماريا، فلن يحتمل أيسر الخذلان هذه المرة.

*****

اليوم الحادي عشر

- الثامن والعشرين من تشرين الأول ٢٠١٩ -

تُقارب الساعة على الثانية ما بعد الظهر، قررتُ اليوم الذهاب مع صديقتي؛ لحضور محاضرتها التي تتحدث عن الأدب الألماني، وعلاقته بالأدب الأوروبي عامة، هذا ما استطعت فهمه حينها، فلستُ ضليعًا أو محبًا للأدب، ألمانيًا كان أم أوروبيًا،

قاعة ممتلئة، وجوه كثيرة، ألمانية، أوروبية، أمريكية، أفريقية، وعربية أيضًا، أستطيع أن ألاحظَ مجموعة لا بأس بعددها، تقف بالقرب من الباب، تبحث عن مقاعد خاوية للجلوس، للأسف لم ينجح أحدٌ منهم بذلك، توقعت خروجهم بعد لحظات، لكنني تفاجأت ببقائهم بمكانهم، لم يغادر أحدهم، لم يشتكِ أحدهم لعدم وجود مقعد للجلوس عليه، لم يقترح أحدهم لأصدقائه بالذهاب للتنزه أو ما شابه، أكمل جميعم المحاضرة.

لكنني لم أعد أحتمل أكثر، لم يمضِ على وقت المحاضرة أكثر من عشرين دقيقة، وها أنا أشعرُ بمللً ومقتٍ ونعاسٍ

شديدٍ.

أستطيعُ أن أرى دون أن أحرك رأسي، أربع أو خمس أشخاص تساقطت رؤوسهم على المقعد من شدة مللهم، انقضت ساعة على الأقل وتبقى مثلها تقريبًا، لا أحد يتحدث غيره، تعلمون من أقصد تمامًا، فمن يستطيع التحدث طوال ساعة كاملة في محاضرة للأدب الألماني غير مُحاضرها؟ أتعجب من قدرته على المتابعة أمام هذه الأوجه الناعسة العابسة، يتحدث ويتحدث، يحاول رمي النكات التي يعتقد بأنها جيدة بين الحين والآخر؛ معتقدًا أنه سيستطيع بذلك إيقاظهم.

لم يعلم أنه سيحتاج إلى أكثر من ذلك بكثير؛ لإنعاش هذا القطيع من النعاس.

لن أستطيعَ كتابة الكثير الآن، ربما بضع صفحات لا تتجاوز الخمس أو ربما أغلق دفتري الآن، فما شأني بالكتابة إن كانت الآن معي.. تبتعد مسافة لا تزيد عن المتر تقريبًا، نثرت الكثير من الورق بأنحاء الغرفة، والتوتر يملأ المكان، تدرس بجد، لا تريد لأيّ مفاجأة غير سارة، إن تأخر تخرجها فصلًا كاملًا، قامت مسرعة نحوي علها تستطيع قراءة بعضٍ من صفحات كتابي هذا، عندما يأست من قدرتها على ذلك، قامت بتقبيلي كسلاح أخير، علّني أعطيها ما تريد، لم تعلم أنني أعلم

تمامًا أساليب النساء هذه، لم أخبركم بأن الصدفة وضعت غرفتي مقابل غرفتها تمامًا، فأستطيع زيارتها كلما سنحت لي الفرصة، وسنتشارك الطعام والشراب، لربما سنستطيع مشاركة أحلامنا سويًا .. لا تستطيع إخفاء إعجابها بالموسيقى، ها قد بدأت شفتاها بالحركة طوعًا عند سماع احدى أغاني أصالة.

سأذهب لتحضير بعض الطعام لها، سأحاول أن أُهيأ الأجواء المثالية؛ حتى تستطيع إنهاء دراستها بأسرع وقت، وليتسنى لي الوقت لإحضار مفاجأتي لها.

*****

اليوم الثاني عشر

- الأول من يناير للعام ٢٠٢٠ -

لن أستطيع وصف كمية الأحباط والحزن الشديدين الذين يسيطران على ذاتي الآن، كيف لا وقد بدأت أولى لحظات العام الجديد بخطأ لن أغفره، أكاد أقسم بأنَّ أكبر متشائم عبوس غير محظوظ لم يحصل على بدايتي لهذا العام.

كانت احتفالات اليوم جميلة مزدهرة مليئة بالوجوه الغريبة كالأسبانية، والبرازيلية، والصينية، ولا ننسى العربية طبعًا، مزيجٌ يُضفي رونقه الخاص على أيّ مناسبة، أضُيف أيضًا دقة التحضيرات، وتناسقها مع المكان، والحدث، أتحدثُ عن روعة الاحتفال من مقابل جدار برلين، تستطيع اشتمام رائحة الخمر الفاخر عن بعد.

الكثير من الألعاب النارية وطبعًا الكثير الكثير من الحب المِتناشر في الأرجاء، فيا كثرة العشاق في هذا الاحتفال، فمن هو الأفضل من مالك القلب، والروح؛ للأحتفال معه عند أول ثانية مع بداية عام جديد، ستتلوها قُبلة بريئة يبدءون

فيها عامًا متمنييًا أن يدوم عشقهم ما داوموا على هذه الأرض أحياءًا يرزقون.

تستطيع أن ترى مختلف الأعمار متواجدين يفرحون، ويلعبون، مسيحين كانوا أم مسلمين، حتى أولئك الأشخاص الذين قرروا أن يكونوا ملحدين، لا يهم، الكل أجتمع هنا، لديهم جميعًا في هذه اللحظة نفس الرؤية، هيا لنحتفل.

لا وقتٌ محددٌ للانتهاء، تستطيع المغادرة متى أردت، يبقى من يبقى، ويغادر من يغادر.

تستطيع بسهولة أن تكتشفَ بأنَّ الجميع يحاولون البقاء متماسكين لأطول فترة ممكنة، أما الآن، فلقد رفعتُ راية الاستسلام، ولم أستطع البقاء لمدة أطول من ذلك.

إنها الخامسة وخمس دقائق صباحًا، أجلسُ الآن مختبئًا من البرد القارس في تلك الغرفة المخصصة لوضع حقائب السفر في خزاءنها، على ذكر ذلك، إنها من حولي وفي كل مكان، لا تستطيع رؤية شيء، إلا ذاك الضوء، ضوءٌ أحمر خافت ينبعث من تلك الخزائن يشير الى الرقم أربعة، أربعة يورهات.

ولأن حتى أتسعَ اللحظات لا تدوم، ها هو أحد عمال

النظافة يأمرُنا بالخروج حتى يستطيع بدء عمله، إنها سخرية القدر حتمًا.

ولا بد لي قبل مغادرة برلين عائدًا إلى مدينتي، من زيارة أحد المطاعم الإيطالية المشهورة في المنطقة، خاصةً إن أحد أصدقائي يعمل كطباخٍ في هذا المطعم، نشيطٌ، لا يهدأ أبدًا، يملك شخصية فذة، حادُ النظر، حكيم، لو تحدثتَ معه هاتفيًا لظننت أنه في الأربعين من عمره، حسنُ المنظر، ولسببٍ مجهول، تجتمع النساء من حوله، كإجتماع النحل على العسل.. وكارتباط عامر بمرتضى، ستجد ذاك الفلسطيني حتمًا أينما تواجد رامي، فلم تحبط شكوكي ووجدتهم، كما توقعت تمامًا، حضرَ لنا رامي طعامًا شهيًا، لا يزال مذاقه الطيب العذب إلى لحظتي هذه، سأسألكم سؤالًا بسيطًا، أليس هنالك في كل رفقة سوء ذاك الشاب المؤمن، الذي مهما حصل لا يقطع أيّ فرضٍ للصلاة، مهما حدث، فأن علاقته مع ربه، ستكون وستبقى الأهم، فيملك صديقي الفلسطيني كل ذلك، محبٌ، بل عاشقٌ متيمٌ بكرة القدم، بل وفي إحدى المرات، كنا في الطريق إلى الفندق بعد عناء رحلة دامت ما يُقارب عشر ساعات، كنا مرهقين، تستطيع رؤية ذلك في أعيننا، دون أن تبذل ذاك الجهد الكبير، لكنه قام نشطًا لرؤيته ملعب الفريق

الباڤاري، لحلمه الكبير للعب في صفوفه، تحدثنا وتسامرنا كثيرًا، حتى أنني لم أنتبه إلى الوقت، فلو لم أنظر إلى ساعتي مصادفة؛ لفوّتُّ رحلة العودة إلى مدينتي.

*****

اليوم الثالث عشر
- العشرين من شباط ٢٠٢٠ –

في غرفتها الصغيرة التي لا تتجاوز مساحتها العشر أمتار نتحدث، ندرس، نتناقش عن حيثيات مستقبلنا المبهم، أعتدتُ أيضًا النوم على الأريكة خلال كل ما سبق، يحتضن هذا المكان معظم ذكرياتنا التي عشناها سويًا، بِمُرها قبل حلوها، لكنني لم أعد أشعر بماهية الشعور حقًا.

هي بالقرب مني لا يفصلني عنها سوى بضعٌ من المليمترات فقط، لكن المسافة الحقيقية بيننا تكاد تتجاوز السنين الضوئية.

نجلس كلانا على الهاتف، لا نتحدث، فما الذي حدث بيننا؟ لم نعد كما كنا سابقًا، وكأن المشاعر التي كانت تفيض من قبل أصبحت الآن مجرد ذكريات لا أكثر.

فتورٌ، إن صحَّ لي استخدام هذا المصطلح في هذا الموقف الذي أعيشه الآن، وكل ما يخطر في مخيلتي الآن، ماذا بعد؟

دقائقٌ قليلة ستنتهي فيها من الهاتف، لربما يصيبها الضجر؛

بسبب ما تراه على مواقع التواصل فتقضل النوم، فلربما ترى أحلامًا أفضل من الواقع العربي السيء التي تراه في كل مكان.

ستقوم بالاتكاء على جنبها الأيسر؛ ليصبح وجهها بمقابلة الحائط فلا يبقى لي سوى ظهرها لتأمله، فكما تعودت مؤخرًا، سأنتظر نصف ساعة، حتى أتأكد من نومها، ثم أرحل، وكل ما أريد معرفته الآن، ما الذي أدى لحدوث كل هذا بعد فترة قصيرة لم تتجاوز النصف عام على علاقتنا.

لربما أجهل كثيرًا من ما تفكر به هي الآن، أشعر بالأونة الأخيرة أنني لم أعد أستطع التفاهم معها، جُل حواراتنا ونقاشاتنا تنتهي دون أيّ فائدة تُذكر، لا أستطيع إقناعها بأيّ فكرة، صغيرة كانت أم كبيرة، فبعد ساعات متواصلة من النقاش، نصل إلى نقطة مفادُها؛ «افعلي ما تريدين «، فذلك أفضل بكثير من إضاعة ساعات دون الوصول إلى اتفاق يُرضي الطرفين على أقل تقدير. ومن المؤكد أن هذا النقاش سيُخزن على إحدى الرفوف العلوية المتينة مع أخوتها من النقاشات المختلفة .. كنت أظنها متينة، لم أتوقع كسرها بهذه السهولة، ولا حتى بهذه السرعة.

*****

اليوم الرابع عشر
- الحادي والعشرين من شباط ٢٠٢٠ -

لا أذكر أنني قمت سابقًا بالكتابة في مثل هذا الوقت من اليوم، إنها الرابعة عصرًا، وأكون عادة منغمسًا في أمور حياتي الاعتيادية، لكن على ما يبدو أنّ هذا اليوم شذ عن قاعدتي فلكل قاعدة شواذ، ألتقيتُ بصديق فاجأني بفصاحة لسانه وها أنا الآن أكتب نقلًا عنه: «هنا تُكتَب البِداية، من هنا بدأت الحرب حَيثُ كان هُنالِكَ القَليلُ مِن الكَثير، والكَثير مِن القليل، فَلسفتي أن كُل شخص يؤمن بوجود النور بعد الظلام وأنه سينير يومًا، تظن أن الطرق من حولك كثيرة، تظن أنك ستتوه بينها، لكن الله لم يخلقك ليحيرك، لم يخلقك ليعذبك، كل شيء واضح وضوح الشمس، إذا أنار الله بصيرتك، سترى ما كان يخفى على بصرك، الله خلقك لطريق واحد، وخلقك له، لا عليك بكثرة الطرق، فالمؤمن الذي يعود إلى الله في اختياراته، لا يندم ولا يتوه، فقط قُل له: أنِر بصيرتي وأرشدني فإني ضائع.

فلا داعي للتشاؤم إطلاقًا، أليس اليوم هو الغد الذي

قلقنا من أجله بالامس؟ غدًا فليأتي أهلًا وسهلًا بأي حال، فإن جاء فما زلت واقفًا.

البارحة مع السلامة يا من جعلني وساعد في بناء كل شيء، أما اليوم لن أدعك تفلت مني أبدًا، سأستغل كل مافيك، في البداية لن أقولَ لك المقدمات؛ لكي أُجِمّل لك ما سوف تقرأه، أو أعطيك أفكارًا رئيسية، تلمح لك عن الموضوع، جُل ما يمكنني إعطائه لك، هو أنها كيان واحد، يرفض كل أشكال التجزئة، فيها الظلام والنور، فيها الخير والشر، هي كما هي لايمكنك تجسيدها في لونين فقط، سأحاول أن أُصور لك مقتطفات لما أراه، فمن الممكن لمحة من عفويتها، أو لمحة من جمالها، أو لمحة من ابتسامتها، لربما لمحة من عينيها البريئتين البراقتين، ترى فيهما فستانًا طفوليًا، أو حديقة زهور، أو محل صابون في أروقة المدينة، يزين بسلاسة رائحتها، وخفتها على القلب طول الشارع المجاور، جميلتين جدًا واسعتين، وبمصطلح آخر غجريتين، فبرغم من كل الصعاب تبقيان صامدتان تعلمان متى تبقيان صامدتين حادتين ومتى تكونان ألطف وأرق وأحن من كل شيء، مع كل حديثي عنهما، فما زلت أجهل الكثير فاتخذ حيطتك، من الممكن أن تتوه لوهلة سِمّها مبالغة، أو سِمّها كما شئت فابتسامتها ليست نادرة أو فريدة، بل هيه أعجوبة في حد ذاتها.»

بقيت مذهولًا لبعض الدقائق أتفحصه هذه المرة بدقة أكثر، كيف لك رد هذه الكلمات تباعًا بتلك الثقة اللامتناهية، أشعرني بأنه عاش كل كلمة قبل قولها، ياالله لم أذهل هكذا منذ فترة طويلة.

إنني حقًا مسرورٌ؛ لنضج عقله وفصاحة لسانه، لقد صنع يومي بكلماته، فوجدتُ نفسي مرغمًا على كتابتها.

ولم أجد نفسي عند نهاية لقائه إلا قائلًا: «أنر بصيرتي ياالله، وأرشدني فإني ضائع».

*****

اليوم الخامس عشر

- الثالث والعشرين من شباط ٢٠٢٠ -

إنه اليوم الذي لطالما تمنيت عدم قدومه، اليوم الذي رغبت بكل ما لدي بأن يكون لي القوة الكافية؛ لِمَحْوِهِ من هذا العام، ستغادرني إلى عمان، وستأخذ روحي وقلبي معها، سأبقى جسدًا من دون أي روح، غريبةٌ هذه الحياة التي تأخذ منا في ذات اللحظة، التي قدمت فيها لنا كل شيء، أُحاول بكامل قدرتي الحفاظ على هدوء أعصابي وكبت مشاعر الحزن التي تعلو محياي، أرغب بالبكاء الشديد، أنّ أجهشَ باكيًا حتى بزوغ شمس يوم جديد، ربما بهذه الدموع الغزيرة تبقى روحي ولا تغادرني.

ربما ستقرأين يومًا كلماتي هذه، وربما حينها ستعلمين ما هو مقدار عشقي وولهي بك.

قاربت على إنهاء روايتي، ولم أذكر لكم حتى الآن اسم حبيبتي، إنها ماريســـا، من منكم لم يعرفها؟

سيتسائل معظمكم، أهذا اسمها الحقيقي أم أنه اسمٌ مستعار كبقية إخوته هنا.

لا تطيلوا التفكير كثيرًا، ستحتاجونه بأمورٍ أخرى أكثر تعقيدًا، ادخروا طاقتكم يا أصحاب.

إنها الواحدة ما بعد منتصف الليل، هي بقربي جالسة، بجمالها، بعيناها السوداوتين، بجمال صوتها وعبق رائحتها، يجلس بالقرب منها أيضًا ستُ فتيات أخريات يُريدون توديعها، جلسة عربية بإمتياز، ها هي إحداهن قامت بتشغيل إحدى الأغاني العاطفية، ربما تكون «تعب الشوق»إن لم تخني ذاكرتي، مع بعض من أجواء الفرح، ها قد قامت اثنتان منهن بالرقص على أنغام أغنية لعمرو دياب، لا أخفيكم فقد أضفوا رونقًا من البهجة التي لا بأس منها في ظرفي هذا.

بعض من الكر والفر، لا أعلم لماذا قمت بكتابة هذه الكلمات الثلاثة، أشعر تارة بأنني أبدأ جريئًا بكتابتي، وما أن يُلامس قلمي ورقتي تُحيط حولي هالة من الجمود اللامفهوم، فلا أستطيع الاستمرار.
كرٌ وفر، والخاسر الوحيد؟

ها هي نانسي عجرم قد استطاعت أن ترسم ابتسامة

جميلة على وجه كل من هو جالسٌ الآن معنا، وها قد انتقلنا مباشرة الى حكيم، فمن التالي؟

على ما يبدو أنها ليلة سترسم في ظاهرها ابتسامة على الجميع، على الرغم من الحزن الذي بداخلي، شُلت أفكاري، فصوت الموسيقى الصاخب يستطيعُ من بآخر الشارع سماعه، لا ضررَ ببعض من المرح والفرح،

تصبحون على خير يا أصدقاء.

*****

اليوم السادس عشر
– الأول من أبريل للعام ٢٠٢٠ –

لا أعلم السبب الحقيقي الذي جعلني حتى هذا الوقت لم أتحدث عن هذا الوباء الذي اجتاح العالم كله، ظننت لو أنني لم أكتب عنه لنقشع وذهب بلا عودة، إنه كورونا أو ما يعرف عالميًا بـــــــ (COVID-19)

تجاوز عدد الإصابات في ألمانيا إلى هذه اللحظة ثمانين ألف تقريبًا، بعضٌ من مظاهر الحياة ما زالت وستبقى مستمرة، إغلاق تام للمطاعم، والجامعات، والمدارس، والملاهي الليلية أيضًا.

تقتصر الحياة الآن على أماكن بيع المواد التموينية، لذلك وبطبيعة الحال تضرر الكثيرون بسبب توابع الاغلاق، حتى أنني فقدت عملي الأول، لكن بفضل الله سُرعان ما وجدت غيره، ولسخرية القدر، لذات السبب.

أعمل الآن كرجل أمن لتنظيم عدد الأشخاص في أحد الأسواق التموينية الكبيرة، يمر عليّ في اليوم الواحد مئات

الوجوه، لم يلفت انتباهي منهم سوى واحد، هذا العجوز ذو ثياب بالية، اعتدت أن أراه مرتين في كل يوم، في كل مرة يدخل بشوشًا، ويطرح السلام، يتجول قرابة النصف ساعة ثم يخرج، يخرج كما دخل، صفر اليدين، بقي على هذه الحال أسبوعًا كاملًا، في إحدى المرات لم يخرج خالي الوفاض، بل اشترى زجاجة جعة من النوع الرخيص، لا يتجاوز ثمنها الثمانين سنتًا على ما أظن.

قمتُ بإنهاء واجباتي سريعًا، حتى يتسنى لي تحضير نفسي جيدًا للقاء غالينا، سوف تُعد لنا سمكًا مشويًا، ولا بد لي حتمًا عند انتهاء هذا الغداء حصولي على كوب قهوة غالينا المميز.

عدتُ للمنزل بعد قضاء أمسية جميلة لا تُنسى، تراود إلى خُلدي رغبة مُلحة لفتح صندوق ذكرياتي القديم، فلم تفارقني الابتسامة طوال تقليبي بمقتنياتي القديمة، كنوزي القيّمة، إحداهن رسالة قديمة كُتبت بخط اليد، كان خطًا جميلًا جذابًا، وورقً من النوع الجيد، لكن كل ذلك كان طبيعيًا إلى حدٍ ما، قرأت فحواها، وشعرت بأنني أقرأ هذه الكلمات للمرة الأولى، فقد قالت لي فيها: «أتعرف ماذا تعني كلمة أحبك؟ أحبك، تعني أن تكون في أعماق القلب بحجم

القلب، أن تكون نبض القلب، وصمام القلب، وكما الدم تسري في شرايين القلب، تصل دماغًا فتتخلل أعماقه، أتدري كيف يكون صدق الحب؟ أن تكون روايتي التي أرويها لنفسي ليلًا، وأستيقظ لأجلها كل صباح، أن يقرؤنك في عيناي سطرًا، وأنت في داخلي روايات، أن تكون سر سعادتي الذي يجهله الجميع حتى أنت، هل علمت كهذا الحب؟ أنت الحبيب لحبٍ لن تلمسه روحك وأنت النبض لقلب تجهل وجه صاحبه، هل تؤمن بأنني أخشى خسارتك برغم أنك لم تكن لي يومًا؟ أخشى أقترابًا منك يحرمني إياك، فأنا أؤمن بربٍ قلبكَ بيده. أأعصيه في من أحب؟ أأعصيه فيك؟ ليذهب قلبك لمن لن يحبك بالمثل، مع درايتي بأنك على حافة الحب، ادعو الله سرًا ألا تقع به، وفي أعماقي دموع منسية تبكيك، تتأرجح على عتبة الحب، ويتأرجح قلبي على عتبات الحرقة والألم، أعامل كأي شخص عادي في حياةِ من هو كل حياتي، وتتعبني غيرتي على من لا يراني، تمنيت لو كنت «جيولوجية» لأراك أكثر، لأراك دون منظار صنعته من أعين من هم بقربك، لأقرأك وأسمعك، لا لأسمع عنك، اقنع غيري بالتخلص من حبك، وأنا في دهاليز متاهاتك.

قد أرى نفسي بقلبك يومًا، ولكن حتى ذلك اليوم لن أهمس لأحد بهواجسي، وأحلامي التي أنت سيدها سأدع

القدر يجمعني بك دون موعد مسبق، سأدعو ربًا لم يعلم ما بقلبي سواه أن يجمعني بروحك يومًا، دمت بود، يا حلمًا جميلًا سيفترسه واقعي.

وأن سألتني لِمَ أكتب لك إنّ كنتُ سأخفي حبي، سأخبرك أنني لا أرسل لك ما اكتبه سوى حين يفيض الفؤاد بما حمل، أفرغ أثقال القلب ببعض البوح، وإن كان يزعجك بوحي، فسأبتر أقلامي، فقط لأجلك».

ما زلت أشم عبق رائحة هذه الورقات كلما شممتها، يا ليتني أعلم من أنتِ، ليتني أستطيع إحتساء كوب قهوة دافء بجوارك، لتحدثني بصدقٍ عن كل ما يُثقل صدرك، سأبقى أنصت لهمسات صوتك، وسأحاول أن أفهم جميع رسائلك المشفرة في حديثك، أيكفيكي ذلك؟

*****

اليوم السابع عشر
- الخامس عشر من تموز ٢٠٢٠ -

لم أعد أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، على ماذا أتكئ؟ لم أعلم حتى السبب الحقيقي لهجر الكتابة دوام ما يُقارب النصف عام، ذات الأسئلة، يبدو أنها ستُرافقني ما حييت.

لربما الأفضل أن أتسائل لماذا عدت بهذا الوقت، تحديدًا للكتابة من جديد، على ماذا سأحصل؟ أسأجدُ إجابات لتلك الأسئلة القديمة؟ سأعود خالي الوفاض كالعادة، سأكون قد أضفت مجموعة جديدة من الاسئلة لا حصر لها.

تحليت بالشجاعة الكافية، وفتحت دفتري المهمل الذي بإمكانك أن تلاحظ كثرة الغبارِ عليه من قلة استخدامه.

لم تقع يدي إلا على صفحة الهامش، كنت قد كتبت عليها أهدافي لهذا العام، كيف أنّ بعض الأحلام لا يجب كتابتها، وأحلامٌ أخرى لا تُمت للمنطق بصلة، على كل حال، هي مجرد خربشات على ورقة كخربشتي هذه تمامًا، يوجد الكثير للبوح، نصف عام ليس بالقليل، والكثير الكثير قد حدث،

أرغب كثيراً بقول كل شيء دفعة واحدة، لا أهمية للوقت، لا أهمية للمكان، كل ما أريده الآن هو الاستمرارية.

أستمع الآن إلى إحدى إذاعات وطني، ما زلت أتابع بعض البرامج، أتتبع إتصالات المواطنين، حتى يتسنى لي معرفة أوضاع بلادي العزيزة، فطلب أحدهم أغنية «لعيون السلطية»، فتذكرتُ صديقي السلطي أصيل، كم أنا مُشتاقٌ لجلساته، لحكاياته، لصوته العذب، كان ما يميزه بقاءه في منطقة الحياد عند حصول أي مشكلة ولو كانت صغيرة بين الأصدقاء، لم يرغب أبدًا أن يخسر أيّ أحدٍ منهم، مهما كان السبب؛ وإن كنت قد تذكرت أصيل، فلا بد لي من ذكر آدم، رفيقي سكني، عاشق الطعام الحار، أكثرنا ورعًا، حافظًا لكتاب الله، كنت كلما أخبرتُ والدتي بجلوسي مع آدم ينتابها حسُ الراحة والأطمئنان، لم أجد أحدهن لم يحبه، بشوشٌ، ضحوكٌ، لكنه أيضًا أكبر عاشقٌ للنوم، فكانت أكثر جُملِه شهرة: «فيني نوم.»، أذكر أيضًا أنني لمرة غضبت بسببه جدًا، لم أكن على حق، لكنه لم يتقبلني إلا بوجهه البشوش، جعلني أتسائل حينها عن سبب فعلي لذلك، فيحدث كثيراً أن نكون لا ندرك معنى تصرفاتنا أو نفهمها حتى.

يحدث كثيرا أن نكون بلا عقل نتصرف بغرابة شديدة،

وعندما تبدأ بسؤال نفسك، ما الذي دهاني؟ لما قمت بذلك؟ حتى أنك لن تعلم ما هو السبب وراء ذلك. يحدث كثيرًا أنك تعشق أحدهم إلى حد الجنون، لكن القدر شاء بإلا يجمعكم، والسبب؟

يحدث كثيرا بأن يجمعكم القدر لأعطائك الفرصة التي أردتها منذ زمن، لكن حكم القدر كان أقوى من حبك وعزيمتك، وكانت جرحًا وألمًا فقط.

ولسخافة القدر، والأيام فتعاود، وتجمعكم مرة أخرى.

لكن كيف سيكون اللقاء هذه المرة؟

تتظاهر بالقوة، والعظمة، والسعادة الكبيرة عند رؤيتها لتشعرها فقط بأنك لم تقف عند هذا الحاجز، وهذا الحب لكن جرحك يكبر ولا يلتئم لرؤيتها، تريد معاودة كلامها، وقول لها بأنك ستحبها دائمًا لكنك لا تستطيع، تريد الذهاب إلى أحد الجبال العالية البعيدة وحيدًا، والصراخ بأعلى صوت بما يخفيه صدرك من جراح، لم يعد لديك سوى هذا القلم أو بالأحرى أنها أزرار هاتفي لتعبر بها عما بداخلك.

أخاف أن يجف قلمي بأحد الأيام، أو تتطعل أزرار

هاتفي ولا أعود قادرًا الكتابة، والتعبير بما في داخلي، عندها سأرفع رايتي مستسلمًا للقدر وحكمه.

*****

اليوم الثامن عشر
- السادس عشر من تموز ٢٠٢٠ -

أشعر الآن أنني أتجاوز كبار السن بأعمارهم، كلما وقفت صباحًا أمام المرآة أرى رجلًا غزا الشيب شعره، وتجاعيد وجهه ظاهرة للعيان، علاوة على تلك الهالة السوداء تحت عينيه، ناهيك عن تقوس ظهره، كلها دلالات تجعلني أخمن بأن عمره التقريبي تجاوز الستين عام لا محالة، إن أطلت النظر في عينيه ستبدأ بمعرفته أكثر، هاتان العينان الفضاحتان، ستبوح لك بكل أسرارها، حالما أطلت النظر إليها، فهي تهوى البوح والإفصاح تمامًا كما أهوى الحديث عنها، لربما وجدت نفسي عاجزًا تمامًا بعد بضع سنين أخريات، لا أستطيع حتى الوقوف لرؤية هذا الجسد الهزيل الهرم.

ربما لن يصدقني أحدكم الآن، لكنني سأبوح لكم بشيء يحدث خلال كتابتي لهذه الكلمات، إنني أجلسُ الآن خلف مكتبِ العمل، ووجدت رغبة ملحة للكتابة، لا أعلم السبب كالعادة، بدأتُ رحلة البحث عن ورقة للكتابة فلم أجد، فأكتب الآن على إحدى أوراق العمل، تلك التي تحتوي

على مواعيد المراجعين، أحاولُ جاهدًا استغلال كل فراغ أجده؛ لتعبئته بكلماتي، بل بحكايتي، وأحلامي، أكتبُ تارة منشغلًا، وتارة أنظر متفحصًا لهؤلاء المراجعين المنتظرين لدورهم، يبدون بخير عندما تراهم، لا أحد يعلم انكساراتهم، أوجاعهم، أحزانهم، تراهم كما أراهم وكما يراهم الجميع، يبدون أنهم حقًا بخير.

صباحًا، وأنا في الطريق إلى العمل ،كنت أقوم بمشاهدة الأخبار على أحد مواقع التواصل الاجتماعي، فشدني خبرٌ كان لا بد لي من ذكره، إحدى الشخصيات العربية المعروفة بعمق تفكيرها وفصاحتها تؤكد التطبيع مع الكيان الصهيوني، فلم أجد نفسي إلا ناشرًا لذلك مع رفضي التام، لأرى تعليقًا من أحد الأصدقاء يدعوني بعدم التحدث عنه والسبب؟ لأنني لا أرقى إلى مستوى هذا المِطبع الثقافي والفكري، أعلم بأنك ستعلم بأنني أقصدك إن قرأت روايتي مُصادفة، فأسفي عليك فقط، لن أخوض أكثر فأنا على يقين بأنكم شهدتم كثيرًا من مواقف التطبيع أيضًا.

ها أنا الآن اضطررت التحدث بحزم إلى أحد كبار السن، يتحدث إلى كل شخص ينتظر في الخارج، ويطلب منه الدخول والجلوس، لا أعلم لما يفعل ذلك، علمًا أن الضوء أحمر

وذلك يعني منع دخول أيّ أحد، نظر لي نظرة لا عجزت عن تفسيرها، فخلال حديثه لم يبدي إعجابه بما قلت، فوجدته مُغتاضًا، والسبب بسيط، كيف لي أنا بأن أخبره ما يفعل، للعلم، لا تزال هذه الفئة بأعداد لا بأس بها، وخاصة في ألمانيا الشرقية.

كما هو المعتاد، أحصل في الثانية عشر ظهرًا، على استراحة قصيرة، لا تتجاوز الثلاثين دقيقة أتناول فيها بعضًا من الشطائر، التي قد قمت بإعدادها مسبقًا، ومن ثم أنهي استراحي بسيجارة، تُعيد لي التركيز من جديد، عند عودتي وجدت ثلاث موظفات على مكتبي، حسناوات، أعتدتُ على رؤيتهم كل يوم، يتسامرن ويضحكن، فلم أستطع إلا أن أدخل بينهم؛ مستغلًا جلوسهم على مكتبي؛ لقضاء بعض الدقائق مع فاتنات مثلهن، فتكفي روائحن العطرة؛ لتغيير مزاج أيّ أحد.

*****

اليوم التاسع عشر

– السابع عشر من تموز ٢٠٢٠ –

على ما يبدو سأهوى الكتابة، وأنا في العمل ،كلما سنحت لي الفرصة أكتب قليلًا، لا ضرر ولا ضرار، وبعد فترة طويلة من العمل الشاق، وجدت نفسي أُعاينُ الساعة فكانت عقارب الساعة تشيرُ إلى الواحدة تقريبًا، قاعة الانتظار خاوية، تستطيع دون أي تركيز سماع صوت جر القلم على الورقة.

تستطيع خلال هذا الهدوء الشعور بالسكينة لدقيقتين، أو ربما خمس إن طال الأمر، من ثم ستشعر حتمًا بالضجر، خاصة بأن حزم الأنترنت قد نفذت دون أي سابق إنذار، لذلك سأحتاجُ إلى أكبر عدد ممكن من المُلهيات حتى لا أشعر بمرور الوقت بطيئًا.

كم أنا مُشتاقٌ لرؤية عائلتي، كم اشتاقُ احتضان والدتي والجلوس بالقرب منها لسماع أحاديثها، يكفيني أن أشعر بـأنفاسها.

والدتي الغالية، أريد أن تعلمي كم أنا مشتاق! كم

أنني أغبطُ إخوتي، الذين يستيقظون وينامون على صوتك!

يا ليتك تعلمين كم أحبك، لكنني كوالدي لا أعرف طريقة للحديث عن ذلك، فأختار أخيرًا مجالسة الصمت؛ عوضًا عن قول أيّ شيء.

أردت في إحدى المرات اكتشاف مقدار نسياني لها، لبستُ قميصي الأبيض وبنطالي الأسود، وضعت عطرها المفضل، وذهبت إلى مكاني، لذلك المكان، حيث بدأت حكايتي معها، جلست على نفس الطاولة، طلبت كوب شاي، كما كنت أفعل، نظرت إلى السُحب، تمامًا كما كنت أفعل سابقًا، لكنني لم أتذكرها، بل وأخرجت دفتري العزيز وقلمي، قبل البدء أخرجت مسودةٍ قديمة كان يكتب عليها أحد أصدقائي، يبدو أنه نسيها معي، فلم أكبح فضولي وبدأت بالتقليب، فلم أجد إلا صفحاتٌ فارغة، لكن إحداها ممتلئ، فقد كان عنوان ما كتبه براقًا، «لن ينسى» فقرأت بشغفٍ:

«لم يدرك بأنه غير مؤهلًا للنسيان بعد ..

ظنّ بأنه قد استطاع التمرد على قلبه ..

جازف بسنين النسيان ..

وحمل روحه وذهب إلى حيث سيجدها ..

أراد أن يثبت لنفسه بأنه أقلع عنها وما عاد مهتمًا بها ..

وكان اللقاء خاطفًا، بعيدًا ..

وقف حيث كان يضحك ..

أصيب بهستيريا ضحك، لم يدرك سببها ..

مرت بجانبه كالغريب، لم تسلم ..

كان الوجه زجاجيًا، لم يحرك ساكنًا ..

ونوبة الضحك بازدياد ..

رحلت! أكملت طريقها مخترقةً روحه ..

توقف والتفت إليها، ليجد خطواتها في تسارع ..

كما هو الحال دومًا، هرب ..

وضع قلبه في محفظة لأنه لم يتدارك نبضه ..

انطفئ قناع الضحك، واغرورقت بالدمع عيناه ..

ما باله ألم يخضع إلى تمارين النسيان ..

أدرك حينها بأنه لم ينسى، ولن ينسى ..

عاد مكسور الخاطر ..

فتح كتاب النسيان من جديد ..

وأعاد الكرة، لعله يومًا ينسى».
فهما حاولت، لن تنسى، وسيبقى ذاك الجرح مُعرضًا للفتك في آية لحظة.

عينان جميلتان دخلتا الآن أو لربما عدستان جميلتان فقط، كيف لي أن أعلم؟ فأنا أشعر بأنني أقع في هذا الفخ كل مرة، في بعض الأحيان لا أستطيع التمييز حقًا.

ها قد عادت الآن مشرفتي، أستطيع الآن أن أتخلى عن الكتابة؛ لأطيل النظر إلى عينيها، عينان جميلتان، لا ريب في ذلك.

*****

اليوم العشرون
- التاسع والعشرون من تموز ٢٠٢٠ -

إنها التاسعة وتسع دقائق، درجة حرارة معتدلة، بعضٌ من الغيوم المتكدسة، حركة مرور خانقة، عددٌ كبير من الأشخاص، الذين قرروا الذهاب الى عملهم مشيًا، أو بإستخدام العجلة كحالتي تمامًا، والسبب؛ أن عمال القطارات قرروا بدء اعتصام من الساعة الثالثة صباحًا، وسيستمر حتى الثانية عشرة ظهرًا، لم أعلم أسباب هذا الأعتصام، لم أبحث عن ذلك، لكنني اضطررت الاستيقاظ قبل موعدي بساعة كاملة.

والسؤال الأهم: من سيعوضني عن هذه الساعة؟

نفس الوجوه الجميلة، التي أعمل معها، مع اختلاف الملابس البراقة، التي تضفي كل يوم رونقًا خاصًا، نفس المكتب، نفس القلم، لا اختلاف حتى في كوبِ القهوة، إنني أتحدث عن روتيني المُقيت في العمل.

قرأت على أحد المواقع الغربية خبرًا سيلفت انتباه الجميع، تضمن في طياته وجود حياة فضائية على كوكبٍ ما،

وإن إحدى الأقمار الصناعية استطاعت رصد أجسام غريبة طائرة، تشبه تلك كان يقودها الفضائيون في أفلامنا، كان الأغرب من ذلك أن الخبر لم يترك أيَّ ضجة، لم يهتم أحد، فبعد ما آلت إليه حياتنا بسبب كورونا لا أرى أحدًا، سيهتم أن كان هناك حياة فضائية من عدمها، لربما نسمع قريبًا عن ظهور الزومبي أيضًا، لا تتعجب أبدًا، فنحن في ٢٠٢٠ يا صديق.

اتهمني أصدقائي بالفلسفة، كلما دخلنا في نقاشٍ نختلف في حيثياته، أصبح حينها فيلسوفًا، لأكون دقيقًا أكثر اتهمت بالتلاعب بالألفاظ، ومعانيها أيضًا، اتهمت بعشرات التهم في تلك الجلسة، لم أعلم من هو ذاك الأحمق الذي عينّهم قضاة، ليحكموا ويدخلوا الحابل بالنابل، وكل ذلك لأثبت وجهة نظري بمجموعة من الحوارات أحتد النقاش ما بيننا فيها كما أسلفتُ سابقًا، أحداها يتحدث عن مفهوم بعض المعاني كمحترم، فمتى نستطيع القول بأن فلان محترم، وما إلى ذلك.

ذهبتُ عند انتهائي من العمل إلى إحدى المقاهي؛ حتى أقوم بالتدقيق عما كتبته سابقًا، أردت أن أعيش أجواء الكاتب كما يقولون، مقهى هادئ، كوبُ قهوة ساخن، ورقةٌ، وقلم، أنسيت شيئًا؟ لو وضعت مبتدئًا مكاني لإستطاع كتابة

القليل، حتى لو كانت تراهات، أميلُ أنا إلى العزلة، في غرفة صغيرة، لا أضواء ساطعة، ضوء ثلاث شمعات على مكتبي، كوبُ شايٍ شديد الأحمرار، مع إنني حاولت استحضار كل ما سبق؛ علّني أكتب ولو قليلًا، لكن هيهات، بدأت التحديق بالحضور؛ علّني أجد منهم من يُثير قلمي، فسقطت عيناي على فتاتين في مقتبل العشرين من العمر على ما اعتقد ذلك، إحداهما ذو شعر أزرق جذاب قصير والأخرى ذات شعر زهري فاتح على ما أظن، كثيرٌ من الخواتم والزينة في أصابعهما، أحببتُ شعرهما وملابسهما العادية، كل ما فيهما يجذبك نحوهما.

أرغبُ بشدة في الذهاب للحديث معهم، في أي شيء كان، أريد فقط أن أجلس بالقرب منهما، والحديث معهما، وربما أكون محظوظًا فتطيل النظر في عيني، فقد أخبرتني أمي مرة بأن العين مغرفة الكلام.

أريدُ فقط أن تطيلَ النظر في عيني، ها قد لاحظت إحداهن نظراتي، فبادلتني النظر حينها، أشعرني ذلك بتوترٍ لم أفهمه.

لا تُسيئي الفهم يا ماريســــــــــــــــــــــــا، ربما أقول كل ذلك لأشعرك ببعض من الغيرة الجميلة

بنظري، وربما قد حدث كل ما قلته، فمن منا يدري أين تكمن الحقيقة؟

*****

اليوم الحادي والعشرون

- الثامن عشر من تشرين الاول ٢٠٢٠ -

إنها التاسعة تقريبًا بتوقيت ألمانيا، أكتب لكم هذه الكلمات، وأنا بالعمل كما عودتكم، لكنني أخوض الآن تجربة جديدة على نطاق العمل، فقد بدأت اليوم في تمام السادسة والنصف مساءًا، وسأستمر حتى السادسة والنصف صباحًا، ليلة طويلة، أتمنى أن تنتهي دون حصول أيّ مشكلة.

أمعنت التفكير مليًا، ماذا عساني أفعل خلال هذا الوقت؟ فلم أجد ما هو أفضلُ من الكتابة لكم أنتم يا أصحاب.

إنني برفقة توماس البالغ من العمر ثمانٍ وخمسين عام، واحد الأصدقاء الذي يدعى غسان والذي يبلغ أربعة وعشرين عامًا وهو أحد طلاب الطب في جامعة هالة القريبة جدًا من مدينتي، لنعد لذلك المدعو توماس، يقف الآن على بعد مترين لا أكثر، ولا يتوقف عن الحديث أبدًا، أشعر بصداع لا أحتمله؛ بسبب صوته الجهوري الحاد.

ما سيفاجأكم أكثر، حكايا هذا المكان، فعند قيامنا

بإحدى الجولات التفقدية للمكان أخبرني غسان بأنَّ هذا المبنى قبل ما يقارب العشر سنوات، كان مشفًى للأمراض العقلية والنفسية، يريني بشوق ولهفة لم أفهمهما حينها خبايا هذا المكان، بل كل غرفة بغرفتها، حتى وصلنا إلى إحدى الغرف فأخبرني أنها كانت الغرفة المخصصة؛ لحرق الجثث، لم أكن أعلم أن الجثث يتم حرقها في مثل هذه الأماكن، ولم تكن لديَ الرغبة لمعرفة ذلك!

أخبرني أيضًا بأن أحد أصدقائه في إحدى المرات، قد رأى على زجاج أحد الأبواب امرأة عجوزًا تمشي بصعوبة كبيرة، فظن هذا الفتى أنها إحدى القاطنين هنا، فتوجه نحوها وفتح الباب لمساعدتها، وعند فتحه لم يرَ أحد، فظن أنَّه خُيل إليه ذلك لا أكثر، فأغلق الباب، فعاد ليرى تلك العجوز مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت مع فتاة ذات شعر أسود غامق، وترتدي قطعة واحدة ناصعة البياض، فلم يعد ذلك الفتى إلى هذا المكان أبدًا.

لا أعلم إن كان يجب عليّ تصديق كلام غسان، في ذات الوقت لا أجد سببًا لعدم تصديقه، مع أنني تعرفت عليه اليوم، حتى أنني لا أعلم السبب وراء دعوتي له بالصديق، أسئلةٌ لا أراها مهمة في لحظتي هذه، لم استطع للأسف كتابة

كل أفكاري، فذلك المزعج توماس لا يهدأ أبدًا، مع أنها قاربت على الخامسة صباحًا، إلا أنه ما زال يحتفظ بقدر كبير من الطاقة، لذلك ليس لي سوى الانتظار ساعة ونصف؛ لينتهي هذا الكابوس.

*****

اليوم الثاني والعشرون

- العشرون من تشرين الاول ٢٠٢٠ -

هذه النظرة، تلك النظرة، جعلتني أخرج دفتري؛ مُغرمًا، نظر إليَّ، تمتلئ عيناه بالحزن، بألمٍ لم أستطع وصفه، إنه أحد المقيمين في هذا المكان الموحش، يبدو عليه شدة المرض والأعياء، جلسنا قُرابة الساعة ننتظر وصول الطبيب، وبعد طول انتظار، حضرَ، بعد المعاينة، أعطى لهذا الفتى إبرة، فصرخ بأعلى صوته، خلال ذلك نظر إليَّ، تلك النظرة، تلك الصرخة، لم تكن من ألم الإبرة فقط، أخرج ألمه كله، ألم فراقه عن وطنه، حزنه على عائلته، قهره، وتعبه، أستغلَّ هذا الموقف؛ ليخرج كل هذا الألم دفعة واحدة، لم أستطع فعل الكثير له، لم أقوَ حتى على متابعة النظر إليه.

خلال الساعات الأولى حدثت الكثير من المشاكل، فذاك تم ضربه؛ لأنه لم يعطي أحدهم سيجارة، والآخر يريد الدخول إلى المبنى عنوة عنا؛ لزيارة صديقه، حدث ولا حرج، المصيبة تكمن بأنَّك لا تستطيع إقناع أحدهم بالمنطق، لا حكم هنا إلا لقوة ذراعك، وبعد هذا الكم المهول من الدراما ليوم

واحد، عادت الأجواء للهدوء والسكينة، حينها تراود لي بعض الأسئلة: فما هي أحلك رغبة أتتك؟ هل نستطيع التحدث عن أحلك رغباتنا، تلك الرغبات التي لا نجرؤ على مشاطرتها لأحد، حتى أنني لا أجد سببًا مقنعًا لأكتب لكم السبب، فجميعنا نعلم السبب لا محالة. ماذا سيحدث لو أخبرتكم بأن الوقت قد توقف عند قراءتكم لهذه الأسطر؟ في ذات الوقت تجدون أنفسكم مع غريبٍ، سيزول عند عودة الوقت للعمل، هل ستخبره عن هذه الرغبات؟

فلتخبرني إذًا، ما هي أحلك رغباتك؟

لو إن هذا الكلمات ستبقى لي وحدي، لكتبت أحلك رغباتي، فإن كتبتها ونشرت كتابي بمحض الصدفة، ستعلمون حينها ما لا يجب عليكم معرفته، لربما سأصبح حديث الجميع لفترة لا بأس بها بسبب ذلك.

في إحدى المرات، كنت أخوض غمار نقاش شيقٍ مع صديقي، فأخبرته بأنني أدفع كل ما أملك؛ لأعلم السبب الحقيقي وراء كتابتي لهذه الأسطر، أخبرني حينها بأنني لا أريد أن أكون منسيًا، لا أريد أن أكون هامشيًا، أريد أن يعلم الجميع من أنا، وعندما شعر بغروري يملأُ المكان، أخبرني بأنني

متقلب، مزاجي، لا أستطيع الاستمرار بفعل شيء لمدة ساعتين متواصلتين، فمن منكم يساعدني الآن على حل هذه الأحجية العصية عليّ؟

*****

اليوم الثالث والعشرون
- السابع عشر من تشرين الأول ٢٠١٨ –

إنه الثالث والعشرون من حكايتي، إنَّه يومي الأخير، أتدرون؟ لقد كانت الكتابة لكم تشعرني بدفء لم أعِ ماهيته حتى هذه اللحظة، هذا الدفء الذي استمرَّ لعامين ونصف العام تقريبًا، ها أنا الآن بعد كل هذه المدة استطعت أخيرًا، أن أتجرأ وأكتب كلماتي الأخيرة؛ مُعلنًا نهاية قصتي، تلك القصة التي وضعت لها في مخيلتي أكثر من مئة احتمال، لكنني ها أنا أكتب بعفوية متجاهلًا هذه المئة، سأستطيع أن أضع النهاية؛ لتكون سببًا في بداية جديدة لحياتي، لا أخفيكم القول، ما زلت أحتفظ بالكثير، الكثير في جعبتي، لكنني أعلم الآن بأنكم ما زلتم تنتظرون حديثي عما حدث في تلك العطلة المجنونة مع مصطفى، لربما تنتظرون بوحي عما جرى مع بيسان، سأكرر اعتذاري لها، فأنا لا أملك الجرأة الكافية للبوح، ولربما نسيتم كل ذلك أيضًا، فلتعلموا يا أصحاب إنني أحببتكم جدًا، وأشكركم على ما قدمتوه لي من عون، أتمنى لكم الصحة والسلامة أينما كنتكم، عسا الله أن يبقى الجميع

بخير وعافية، سأخبركم أخيرًا بـأحد الأمثال الذي حضرني الآن، وقد كان يقوله لي صديق والدي مع قصِّ حكايته أيضًا، فقد قال لي: «دقـــــة بدقـــــة، لو زدت لزاد السقة».

فلتعلموا أنني لم أكن أرى إلا أولئك السُذجِ من البشر، أولئك الذين يحملقون في الأمور التافهة التي تناسب قدراتهم العقلية، ربما تكون تلك الأمور، هي القالب المناسب للصراع الفكري الذي يفصل القلب عندهم عن العقل في أغلب الأحيان، فيتمسكون بأبغضِ الصفات، ويلتمسون منا الأعذار بأسلوب هو أقرب ما يكون للإشمئزاز، الابتذال، وأعاود القول لسذاجة الفعل، يأتون إليَّ بفقاعة صابون، يقبضون بجلّ عنفهم الفكري عليها، فتتلاشى كأنها لم تكن، وإن أتوا إلى قطعة فولاذ، يتحسسونها بأنامل أصابها الإعياء الشديد؛ لسوء فعلهم ومن ثم يغضون الطرف عنها، أيضًا كأنها لم تكن.

هكذا هم، يسيطر عليهم الشك في كل شيء، الظنون السيئة برمتها، هي الأكسجين التي من خلالها يكبرون ويقطعون العمر بسذاجة، لا إبداع، لا تقدم، لا رؤية واضحة، ينفذون من خلالها إلى عوالم العلم، والحب الطاهر.

إذ كيف لهم أن يصلوا للدرجة الأولى من الفكر

السليم، وهم يعاملون الفقاعة بقسوة وقطعة الفولاذ بلين؛ فرفقًا بقلوبكم، رفقًا بمشاعركم، رفقًا بحياتكم.

تلك كانت فلسفة أحد الأصدقاء القدامى، صديقٌ عاد ليخبرني بهذه الكلمات فقط.

هناك صوتٌ غريبٌ في رأسي، إنه يتكرر، إحداهن تُنادي: «سيدي، سيدي، استيقظ إنها المحطة الأخيرة».

يا إلهي! نظرتُ مسرعًا إلى ساعتي، إنها الواحدة واثنان وثلاثون دقيقة، تبًا! إنه يومي الأول، لقد تأخرتُ ثلاثة وعشرين دقيقة.

يتبـــــــــــــــــــــــــــــــــــــع...

للتواصل مع الكاتب

أيميل: www.facebook.com/ramsii95

WhatsApp: +491785098032